متلصص في الغربة

رواية

أسامة علي

الطبعة الأولى

2020م- 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

عنـــوان الكتاب: متلصص في الغربة

اســـم المـؤلف: أسامة علي

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــداع: 22050 / 2020

الترقيـم الدولي: 978 – 977 - 6749 - 18 - 4

تـصـميـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

متلصص في الغربة

رواية

أسامة علي

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
حقوق حلمك

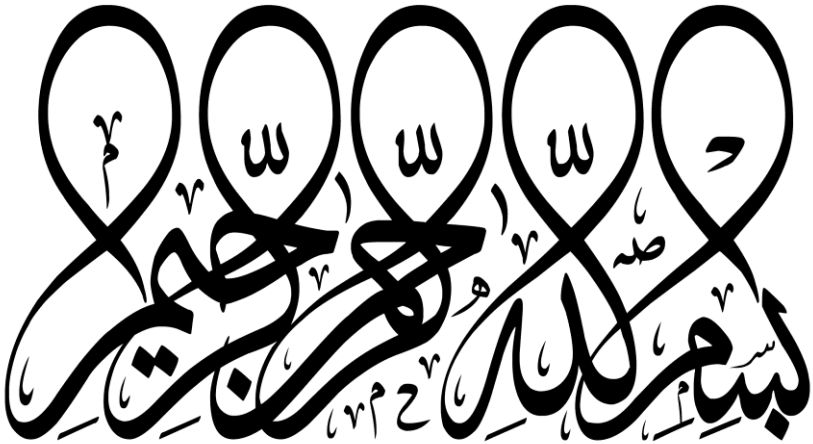
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

وقفت حائراً تُرى من يستحق هذا الإهداء؟!

وبعد حيرة كبيرة قلت لنفسي، أن تهدي أحدهم شيئاً يعني أنك تكرمه، ولم أجد من يستحق التكريم أكثر من الأبطال الحقيقيين لهذا العمل وبلدانهم.

- أبو عمار (العراق)

-حذيفة (فلسطين)

-سعد (مصر)

-علي (سوريا)

- محمود (مصر)

أسامة علي

****

تنويه

الكاتب يخلي مسؤوليته عن كل ماورد في هذه الرواية، ويحمل الأبطال المسؤولية كاملة، ليس تملصاً منهم بقدر ما هو إنصافاً لهم

¤ تمهيد ¤

عندما حاولت تطبيق نصيحة جدي التي أخبرني فيها
"ألا أنخدع بالمظاهر وعليّ بتقصي الحقائق"
هذة النصيحة التي بسببها قرأت ودونت مذكرات عجوز خرف وعلمت منها سره الذي لو مات دون أن ألتقيه ليلاً في مقابر قرية الظلام وتابعته ودخلت بيته خلسة كما يفعل اللصوص، لدفن معه وإلى الأبد.
منذ ذلك الحين وقد عشقت التلصص وأردت تطبيقه في غربتي، لأكتشف أنني كنت أحمق عندما ظننت أن الغربة فقط من أجل المال، فعلمت أن الغربة.....
دعكم من المقدمات فهي دائماً جميلة وخادعة، وأنا أكره الخداع، هيّا بنا.

****

التوقيت:

الواحدة ظهراً يوم الاثنين الموافق الثاني والعشرين من يناير للعام الثامن عشر بعد الألفين.

المكان:

مطار القاهرة الدولي حيث الزحام، الكثير من الأشخاص، الكثير من الحقائب، الكثير من الأصوات.

تشعر وكأن الجميع قد قرر السفر، وتحديداً في الصالة رقم واحد، تتعالى أصوات المذيع الداخلي التي تنبه على أن رحلتي ستتحرك طائرتها بعد نصف ساعة.

هذة الكلمات من المذيع كانت كفيلة أن تصنع في عقلي قصراً من الأحلام الوردية والمستقبل المبهج، فبعد نصف ساعة سأترك أرض أمي التي لفظتني هكذا بكل سهولة متخلية عني.

اللمعة التي في عينيها تعبر عن فرحتها بأن ابنها أصبح شاباً طموحاً، سيبتعد عنها عامين أو ثلاثة فقط وسيعود إليها ناجحاً محققاً لمستقبل أفضل من أبنائها الكسالي، الذين أحبوا الضعف والمهانة ولم يسعوا في الأرض، ومن كثرة ضيق الحال أصبحوا عاقين بأمهم يرموها بأفظع الألفاظ وأشدها قسوة، ينعوتها بأسوأ الصفات، يعيبون عليها لأنها فقيرة، رغم أنها تحبهم وهم أيضاً، رغم ضيق الحال إلا أنهم سيدفعون حياتهم دفاعاً عنها إن

تجرأ أحد وقرر مضايقتها، ولكن لضيق الحال قانونه الخاص الذي يجعلك تظهر تحت قناع لا تعرفه ولم يكن يوماً من مقاسات وجهك.

هذة الحالة التي تعيشها أمي مع إخوتي دفعتها للفرحة وهي تودعني من أرضها.

رأيت أيضاً في عينيها دموع حزن امتزجت بالفرحة فلم أعرف هل هي حزينة أم فرحة؟!

لكن لهفتي للوصول إلى حلمي ومستقبلي لأعود بعد عامين أو ثلاثة إلى حضن أمي وأعوضها قسوة إخوتي معها جعلتني لا آبه بأمر دموعها.

طارت الطائرة وأنا ألوح لأمي بيدي، الغريب في الأمر أن بعد إقلاع الطائرة بلحظات قليلة شعرت برعشة انتفض لها جسدي عندما رأيت أمي تضع يدها على رأسها، لم تستطِع كاميرا عيني التقاط الصورة بوضوح ولم أكلف نفسي عناءً ولا جهداً لتفسير ما حدث، فحلمي يداعبني الآن وأصبحت فيه ولست على مقربة منه فقط، ربما اشتياقها لي هو ما أجبرها لإصدار تلك الفعلة، أنا أعرف أنها لا تكرهني رغم أنها قدمتني قرباناً للغربة وهي تعرف أني قربان، فأنا ابنها السابع عشر بعد الألف والعشرين مليون إن لم يزِد الذي تقدمه قرباناً لإله الغربة، أعلم يقيناً أن قلبها انفطر قبلي على أبنائها ملايين المرات لكن ليس باليد حيلة لديها، وعلى يقين أنها تحبنا جميعاً بالتساوي، لكن لأنّ حظها كان عاثراً فقد تزوجت الكثير قبل أبي وأنجبت من الجميع، ولسوء حظي أنّ قلبها لا ينفطر إلا على إخوتي من أبي،

فوالدي هو الزوج الوحيد لها الفقير، وعندما تودع واحداً منا هي لا تكرهه قطعاً ولا تلقي به إلى التهلكة، هي فقط تريد أن يعود ناجحاً محققاً لمستقبل أفضل كما إخوته من أمه وأن يحمي أبنائه من خوض غمار هذه الرحلة في الجحيم أملاً في جنة قد تأتي وقد لا تأتي، نست أمي الحبيبة التي أحببتها بكل جوارحي أنها أرسلتني إلى الوهم، تناست الحبيبة الحنونة أن واحدة من أصعب المراحل التي يمر بها أي إنسان في حياته هي مرحلة السفر والغربة عن وطنه الذي نشأ فيه والبعد عن أسرته، فمهما كانت الأسباب دائما النتيجة واحدة وهي الحنين إلى الوطن، فالغربة من أكثر الأمور التي يتعرض إليها الشباب بحثاً عن عمل مناسب في الخارج، فيجد نفسه يقف أمام موج هائج ووحش كاسر اسمه الوحدة والحزن والعزلة، والبعد عن أهله وأصدقائه وبلده، لكن لا بأس أن نتحمل هذا الشعور سنوات قليلة حتى نعود بمستقبل مبهر وأحلام محققة معنا،.. هكذا قلت لنفسي.

أنا على يقين أنّ الغربة قاسية لكن لا بأس، فالآن ها أنا ذا قد وصلت إلى أرض الواقع حيث حلمي...

الآن أنا في مطار الملك عبد الله، الأحلام الجميلة والمستقبل الرائع يطوف حولي، أنساني رعشة الحنين التي انتابتني لتوها، هيّا أسرع أيها الموظف أعطني الختم أريد الخروج إلى حلمي في هذا المجتمع الذي استغربت عاداته ولهجته وملامح أهله منذ وهلتي الأولى وأول قدم لي وطأت أرضه، ولكن لا بأس مالي ومالهم؟!!!

أنا فقط جئت عامين أو ثلاثة، سوف أقضيهم ولو صامتاً لا مشكلة عندي، كما أنك لابد أن تهدأ يا أنا ففي النهاية يتكلمون العربية مثلك هم عرب إخوتك لا تخف إهدأ يا حبيبي عد فقط وطالع حلمك، ها هو ينتظرك بالخارج هكذا يدور داخلي.....

انتهيت من إجراءات الأوراق والختم وخرجت، استقبلني مندوب العمل الذي أتيت من أجله، لحسن حظي أنه من بلدي ولكنه لم يكن لطيفاً كما يجب أن يكون، فقد بدأ كلامه بسؤالي عن سبب ترك بلدي ومجيئي إلى هنا؟!

شعرت أنه لئيم يحاول تفتيت عزيمتي

فجاوبت بلؤمٍ قائلاً: جئت لأجل ما جئت أنت من أجله،

فضحك باستهزاء وقال، إذاً مرحباً بك في جحيم الغربة يا عزيزي، حيث وهم العامين والثلاثة التي ستمر عشراً منها ولم تستطِع تحقيق ما جئت لأجله في عامين.

انتابني حقيقة شعور البغض من كلماته تلك، حتى أنني كنت أتمنى أن يصمت ولا يتحدث، ما خفف من حدة غضبي منه وكرهي له إلا أنه عندما وصلنا إلى مقر العمل وأراد الموظف المختص بتوزيعي على الشقة التي سوف أسكن فيها، تدخل هو وقال له أنه يريد لي مكاناً معيناً قاله هو أنا لم أكن أعرفه، ولأن الانطباع الأول الذي أخذته عنه كان سيئاً فقد ظننت أن المكان الذي اختاره لي سوف يكون مكاناً سيئاً، ولكني أسررتها في نفسي فماذا عساني أن أفعل ؟!!!

قلت في نفسي أياً ما كان المكان فكلها غربة، وكان هذا هو أول تنازل قدمته في غربتي على حساب نفسي....

فالتزمت الصمت وبعد دقائق وأنا أقف بجوار حقيبة سفري، عاد لي وقال: هيا بنا.

كنت في نفسي أردد والله لقد كرهت صحبتك منذ اللحظة الأولى ألا يوجد غيرك يوصلني لهذا المكان السيئ الذي اخترته لي؟!

ولكني أيضاً التزمت الصمت واستقليت معه السيارة، بعد دقائق ليست طويلة وصلنا إلى الشقة التي يقصدها، نزلنا من السيارة وحملت حقيبتي وذهبت ورائه، دخلنا إلى مكان ليس بالسوء الذي رسمه خيالي، فهي شقة كبيرة بها ثلاث غرف وحمامين ومطبخ، حالتها ليست جيدة ولكنها ليست سيئة أيضاً كما توقعت، دخلنا، ألقى السلام.

كان هناك ثلاثة أشخاص جالسين ردوا السلام عليه وكانت الابتسامة مرسومة على جبينهم جميعاً، ولكنك لا تحتاج لعناء لمعرفة أنها مزيفة وأنها قناع وراءه خراب.

دار في نفسي أنهم انتابهم الضجر لوجود موظف جديد ربما لا يريدون ذلك!!

لكن ما الدافع لأن يطلبوا موظفين جدد إلا إذا كانت هناك حاجة حقيقية وأن هذا لن يضر بموظفيها القدامي، ووسط شرود ذهني انتبهت على صوت الرجل الذي استقبلني إلى هنا قائلاً: تعرف عليهم هذا الشاب اسمه "علي" هو من سوريا، كان شاباً وسيماً ذو بشرة بيضاء رحب بي على طريقته السورية التي أحبها وأعشقها وتأسرني فهم يمتلكون قلباً طيباً وحلاوة لسان ما بعدها حلاوة، إنها بلاد الشام الجميلة وأبناؤها.

والثاني هذا هو "حذيفة" فلسطيني، رحب بي أيضاً وكان لطيفاً فهو من تلك البلاد المحببة إلى قلبي وهل هناك عربياً واحداً لا يعشق تراب فلسطين؟!!!

والثالث هذا هو.....

وقبل أن يكمل قاطعه قائلاً: دعني أعرفه بنفسي أنا أيها الكئيب وابتسم.

من لهجته ومع أول حرف قاله علمت أنه مصري مثلي، فأخبرني أن اسمه "سعد" يعيش في القاهرة، وبدأ يمزح معي كثيراً، حقيقة كانت روحه جميلة ومرحة أحببته منذ اللحظة الأولى، الغريب في الأمر أنه عرّفني عليهم ولم يعرّفني على نفسه فقد كان حقاً كئيباً كما قال له سعد.

تركنا ودخل أحد الغرف وعلمت من سعد الذي كان يساعدني في ترتيب أغراضي وحقائبي أن اسمه "محمود" من الريف، هو يبدو كئيباً ولكنه ذو قلبٍ طيبٍ ستتعرف عليه وتحبه كثيراً، لكن هذه عاداته وطباعه وكلامه دائماً جاف، ولكني أؤكد لك أن قلبه أبيض.

ما أكد لي صحة كلام سعد عن طيبة قلب محمود وقلل من حدة كرهي له، أني علمت أنه يسكن معنا في هذا المكان ومن المستحيل أن يختار لنفسه مكاناً سيّئاً.

مر ما يقارب الساعتين وأنا أجلس أنا وسعد وحذيفة وعلي نتسامر ونضحك، بعض الكلمات لم أكن أفهمها من حذيفة وعلي فيعلق عليها سعد ضاحكاً ويخبرني بمعناها، انغرست بينهم سريعاً فقد كانوا قريبين من عمري، الغريب أن محمود من لحظة دخوله غرفته قبل ساعتين لم يخرج ولم يسأل عنه أحدٌ منهم يبدو أنها عاداته.

بعد مرور ما يقارب الساعتين والنصف دخل رجل كبير مازحه سعد قائلاً: ها نحن المصريين أصبحنا نصف الشقة أيها الشيبة ولنا رأي الأغلبية في كل شيء.

فابتسم الرجل وقال: وأنا رابعكم.

عرفني سعد عليه فعرفت أنه رجل عراقي يلقبونه "أبو عمار"، كانت روحه مرحة تشعر وكأنه قومية عربية متحركة على الأرض، يعشق العرب بكل

طوائفهم ويدافع عنهم ويكن لكل العرب الحب والاحترام، كان مثقفاً جداً ويعلم الكثير من أمور التاريخ.

كل ما استغربته فيه أنه رجل خمسيني ولا يزال مغترباً، ما الدافع الذي يجبره على ذلك ؟!!

أنا في نفس عمره هذا لن أتغرب ولو لم أجد خبزاً يابساً أقضي به على جوعي.

بعد منتصف الليل قام كل منا بالدخول إلى سريره محاولاً النوم.

منذ اللحظة الأولى لانطفاء الأنوار وشعرت باشتياق وحنين لبلدي، بدأت تطوف حولي الذكريات والأيام الخوالي ولكني تحاملت على نفسي وقلت لعلّ هذا فقط يحدث في الليلة الأولى، بدأت أتقلب على سريري لا أدري متى غلبني نومي.

استفقت على صوت سعد يوقظني قائلاً: هيّا بنا أيها الكسول لقد تأخرنا على العمل.

استيقظت، وانطلقت إلى العمل، ساعدني سعد كثيراً في فهم أمور عملي حقيقة كان أقربهم لقلبي.

انتهى اليوم الأول وعدنا إلى شقتنا ولا جديد، فما حدث البارحة هو نفسه ما يحدث اليوم عدا اختلاف فقط الكلمات والمواضيع التي تثار وخلدنا في نهاية الليل إلى النوم، ويبدو أنني كنت مخطئاً عندما توقعت أن الحنين للوطن يحدث فقط في أول ليلة فها هو يطوف حولي يبدو أنه جزء من كل ليلة لكل مغترب وهذا ما أكدته الليالي.

مرت الأيام والتحمت ببعضها البعض سريعاً ما بين عمل في النهار وحنين بالليل للوطن، الغريب أني لم أسمع أحداً منهم يتحدث عن حنينه لوطنه كما يحدث معي كل ليلة، اعتقدت أنني الوحيد فيهم الذي ينتابني هذا الشعور.

وها هي الأيام تمر، سعد لا يترك كلمة ولا موقف إلا وضحكاته العالية تزيد عليه حتى وإن كان الموقف لا يستحق كل هذه الضحكات،

ومحمود قد لا نراه إلا في العمل أما في الشقة كعادته منذ أول ليلة في غرفته وكلامه شبه معدم ليس له صديق إلا أوراقاً يكتبها كل ليلة لا أعرف ماذا يدوّن فيها؟!!!

كم أتمنى أن أعرف ماذا يدوّن داخل تلك الأوراق فأنا على يقين أنّه عالمه الذي يخفيه عنا، الغريب في الأمر تلك المكالمات الهاتفية التي تأتيه من حين لآخر يبتعد عنا ويقوم بالرد عليها، لم أكن أسمعه ولا أعرف ماذا يقول؟ ولا مع من يتحدث؟

ولكن نظراته وانفعلاته وحركات يديه التي أراقبها عن بعد تؤكد لي أن هناك شيء كارثيّ وراء هذة المحادثة، وبعد أن ينتهي يعود إلينا راسماً ابتسامة كأنه يحاول إيهامنا بأن الأمور بخير، دقائق قليلة ويعود لقوقعة أوراقه وغرفته من جديد، أما حذيفة فرغم جلوسه معنا كثيراً إلا أنك لا تحتاج إلى معاناة لتعرف أنه يحاول الهروب من شيء خفي داخله رغم ضحكاته وتدخله في كل شيء وحديثه الذي لا ينتهي، الشيء الذي استغربته فيه كثيراً هي تلك الجروح الغائرة في أنحاء جسده، تشعر وكأن دكتور جراح هو من قام بها بعناية فائقة، دفعني الفضول ذات يوم لمعرفة سببها؟!

فأخبرني ضاحكاً أنه في أحد الأيام قد سقط من على حصان وأصيب بهذه الجروح.

هو كاذب قطعاً لا محالة ولكني لم أرد تكذيبه وإحراجه، الشيء الذي استغربته فيه أيضاً وبقوة أني لم أرَه يوماً يتحدث في الهاتف إلى أهله بعكس عليّ الذي لا يترك هاتفه أبداً من يده ينتهي من اتصال فيبدأ في آخر ويحب الحديث دائماً وبطريقة مبهمة أن يتكلم عن إخوته وطفولته،

أما أبو عمار فلم يكن فقط كبيراً في عمره ولكنه كان كبيراً أيضاً في أفعاله، فرغم أنه كان مبهماً في تصرفاته وكان خفياً لا يمكن فهم كل ما يجول في خاطره، إلا أنه كان يجمع صفات الجميع فقد كان يشاطرنا سمرنا ويضحك معنا كما لو كان ما زال شاباً في ريعان شبابه، يشارك الجميع في كل شيء، إلا أنه عندما كان يدخل غرفته، تشعر وكأنه أصبح شخصاً آخر وكأنما دخل خلوة مع شيطان، فيخرج متعباً حزيناً يحمل من الكآبة الكثير والكثير ولكن سرعان ما كان يتخلص منها على باب غرفته ويرسم ابتسامته، ويعود ليضحك معنا كأن شيئاً لم يحدث معه بالداخل.

استمرت الأمور هكذا طويلاً.

مرت الأيام والشهور اعتدت فيها على كآبة محمود وغرقه بين أوراقه ووحدته، وبين ضحكات سعد التي لا تنتهي، وحذيفة ظل علامة استفهام كبيرة بجروحه، وأبو عمار وغربته وهو رجل خمسيني، ومكالمات علي التي لا تنتهي.

اعتدت أيضاً في تلك الأيام على حنيني للوطن ولقريتي قرية الظلام كما كنت ألقبها.

وفي أحد الأيام طلبت الشركة التي نعمل بها أن يتم إرسال أربعة منا إلى فرع آخر لمدة أسبوع كنت أنا وسعد وحذيفة وعلي، لكن الغريب أن محمود طلب أن يذهب مكاني استغربت فعلته وهذا ما دفعني إلى سؤال سعد؟!

فأخبرني أن هذه المأمورية تأتي كل عام تقريباً وهي صعبة ومملة وشاقة وأن محمود فعل ذلك لأجلي.

استغربت وبشدة كيف يفعل ذلك لأجلي؟!!

فقال سعد، هو هكذا دائماً رغم كآبته كما أخبرتك إلا أنه

لا يتأخر لحظة في مساعدة أحد حتى لو على حسابه، لكن هو هكذا صامت وهذه عاداته التي اعتدناه بها.

وبالفعل ذهبوا الأربعة وبقيت أنا وأبو عمار وحدنا ولكن فعلة محمود معي لازالت عالقة في ذهني، فإذا كانت هذه مأمورية شاقة ومتعبة كما قال لي سعد فلماذا يضع نفسه فيها بدلاً مني ليتحمل تعب ومشقة لم تكن له!!!

زاد يقين بداخلي أنَّ وراء كلٍّ منهم شيئاً خفياً لابد من معرفته، ولكن كيف أتقصى أمر هؤلاء وأعرف ما يخفونه خلف تلك الابتسامة التي بت على يقين أنها مزيفة ؟!!!

فمع مرور الأيام في الغربة أيقنت أن الغربة هي الحياة التي تغيرنا مع الزمن ولا تبقي شيئاً على حاله، يبقى فقط الشكل العام وتتغير التفاصيل ففي النهاية الغربة فراق وكم من فراق كسر ظهر وشل حركة ؟!!

وكم من تأثيرات حفرتها فينا الغربة، كنا نعتقد أننا يوماً ما نستطيع إصلاحها، ولكن الحقيقة أنه لا يمكن إصلاحها ولا معالجتها.

مع مرور الأيام وقسوة الحياة في الغربة تتكاثر التراكمات "والتراكمات قاتلة حد الموت هي أشد فتكاً من كل أسلحة الدمار، فهي كالسم تقتل بدم بارد فتغير كل شيء الملامح والطباع وتحول الجميل إلى قبيح وطيب القلب إلى معدوم الضمير"، فالمغترب هو الضحية التي تجرب فيها كل أنواع القتل، والفأر الذي تجري عليه التجارب، ولكنه الأعجوبة التي لا تموت، قد يموت الإحساس واللهفة والاشتياق من كثرته ولكن يبقى المغترب ميتاً بجسد حيّ، المغترب يصل إلى مرحلة يشعر فيها أن الموت الحقيقي لا يعني له شيئاً حقيقة وليس مجازاً، وإياك أن تخدعك كلمات المغترب الكاذبة التي يخبرك فيها أنه سعيد بغربته هو كاذب وإن صدقته ستكون أحمق، فالغربة عن الوطن هو الفراق الذي يشبه الموت فلا يمكن للإنسان أن يعيش خارج بلده وهو سعيد بل يقضي كل أيامه خارج بلده وهو يحن إليها دائماً يفكر فيها ويتمنى أن يعود إليها في أقرب وقت ممكن " فبلدي وإن جارت عليَّ عزيزة"، ففي الغربة المغترب لا يمتلك معه فقط إلا جسده أما الرّوح فتعصيه وتهجره وتمكث في الوطن ويبقى طوال فترة غربته منقسماً بين جزئين جسدٌ في غربة وروحٌ في وطن، المغترب لا تمر ليلة عليه إلا ويصيح شوقاً إلى أرض عشقها وغادرها يستذكر فيها الأهل والأصدقاء والعائلة، يستحضر شوقه الذي لا ينضب، يخاطب الأرض والوطن بأجمل كلمات العشق والأشعار في صمت، المغترب في غربته طالت أو قصرت لا يمكن أن ينسى أرضاً أحبها وعاش فيها منذ نعومة أظافره وهذا ما استغربته في أبو

عمار فرغم كبر سنه وأنه رجل خمسيني كيف لم تنهش تلك الذكريات القديمة لحم جسده وتجبره على العودة؟!!

وفي أحد الأيام كنت أجلس في الصالة وحيداً فلا زال سعد وحذيفة ومحمود وعلي في مأموريتهم وأبو عمار قد دخل غرفته، يبدو أنه يتحدث في الهاتف، لم أتلصص عليه كما يفعل اللصوص رغم أن بداخلي وحش هائج اسمه الفضول، يريد أن يعرف ما يخفيه هذا الرجل، قد يكون وراءه سر كبير كما "ميمون" عجوز قريتنا، وبينما أنا جالس أفكر فيما يخفيه هذا الرجل إذا به يخرج من غرفته حاول ممازحتي قائلاً: أتجلس وحيداً؟ وابتسم، ولكن صوته كان مخنوقاً بالكاد أخرج كلماته، ورغم الابتسامة العريضة التي رسمها إلا أنه لا معاناة لدي لأعرف أن الأرض قد ضاقت به زرعاً الآن.

دخل مسرعاً إلى الحمام غسل وجهه وعاد لي، جلس بجواري وبدأ يمزح كعادته كثيراً لكن صوته واضح، فاستجمعت قوتي ووسط حديثه قاطعته قائلاً: ماذا بك؟!

فارتبك الرجل، ولكنه رسم ابتسامة أكبر، وقال لا شيء وتابع حديثه.

ما أكد لي أنه ارتبك، أنه لم يكمل في ذلك الحديث الذي كان يتحدث فيه، فأيقنت أنها فرصتي للغوص بداخله، ومعرفة ما يخفيه،

حان وقت الهجوم يا أنا، فسألته وأنا أحدق في عينيه: أشعر أنك بك شيء هذه ليست عاداتك أخبرني؟

فأبعد نظره عني وقال: حقاً!! لا شيء فقط إرهاق.

دفعني الفضول الذي تملكني أن أعتدل في جلستي وأتحول سريعاً لأكون في مواجهة نظره الذي أبعده عني، نظرت طويلاً في عينيه وقد بدا عليهم الضعف، هم على أعتاب البكاء، لولا أن بأسه شديد لسقطت...

"العين دائماً تحدثنا بما يخفيه اللسان، فلغة العيون هي أصدق اللغات"،

الرجل منهك عليَّ بمواصلة هجومي، لحظات وسيقوم بتعرية نفسه أمامي ويفضفض، ألم يخبرونا أن الفضفضة هي نوع من التعري؟!!

فسألته وعيني في عينيه: أعلم أن بداخلك شيء جلل أخبرني بربك، فأنا أحد أبنائك واطمئِن لن يعرف أحد غيري..

نظر في عيني ويبدو أنه سيتحدث وأن ما يخفيه كبير..

فقال: فقط عرس "روان " غداً، وكنت أتمنى أن أكون حاضراً.

وهنا اغرورقت عيناه بالدموع وانتفض سريعاً من مكانه، وعاد إلى الحمام..

تساءلت في نفسي من روان؟!!! هل هي حبيبته؟!

ولكن سرعان ما وبخت نفسي متسائلاً: أي حبيبة لرجل خمسيني هذه التي يبكي لأجلها؟!.

أنهى غسيل وجهه وعاد لي، فباغته بسرعة متسائلاً: من روان؟!!

فقال: هي ابنتي الثانية التي لم أحضر عرسها بعد أختها "رغد".

فسألته: وما الذي يدفعك ألّا تحضر عرسهم؟!

لمَ لمْ تحصل على إجازة ولو شهر تحضر فيها عرس ابنتك؟!

فابتسم ابتسامة بائس وقال: لو كان بإمكاني أن أعود إلى بلدي شهراً ما خرجت منها.

فتعجبت وسألته: كيف لا يمكنك فعل ذلك؟!

كل مغترب من حقه أن يعود إلى بلده متى شاء، وأنت رجل خمسيني لا فائدة من غربتك.

فقال: الأمر في غربتي يختلف عن الغربة التي تفهمها يا بني.

فقلت له: حقاً لم أفهم ماذا تقصد؟ كل ما أعرفه أنك مغترب مثلنا وها أنت معنا، والغربة واحدة هي البعد عن الأهل والوطن، هذا ما أعرفه عن الغربة، فماذا عن غربتك التي تقصدها؟!!

فقال: الأمر عندي يختلف يا ولدي فأنا غربتي هي غربة وطن وليست غربة فرد مغترب من أجل المال.

فتعجبت من أجابته وسألته ماذا تقصد؟!

فقال: هل رأيت شيئاً خلق من العدم، أو حاضراً بلا ماضٍ؟!!

فقلت له: لا.

فقال: حاضري هذا هو نتيجة لماضٍ بائس، وصمت.

فقلت له: أريد أن أعرف ذلك الماضي البائس، هلّا أخبرتني؟!!

فقال: الموضوع كبير وطويل جداً هل لديك القدرة على الإنصات لي؟

فقلت له: نعم لدي وأريد أن أسمعك.

فقال: حسناً سأخبرك وسأحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أختصر فالموضوع كبير كما أخبرتك، والآن هيّا بنا لنعود للوراء طويلاً لنقف عند العام التسعين بعد الألف والتسعمائة، هذا العام كان مفترق الطرق في حياتي وفي حياة دولتي، وتحديداً في بغداد، حيث التحقت بالعمل في الجيش العراقي، عندها تحولت حياتي التي عشتها ليست بائسة ولكنها أيضاً لم تكن رغيدة.

التحقت بالجيش فتيسرت حياتي وتزوجت وأنجبت ولدي عمار وابنتي رغد، الأمور كانت تسير بشكل جيد واستقرار بعد عملي في الجيش،

حتى جاء ذلك اليوم المشؤوم الثاني من أغسطس للعام التسعين، وتحديداً في الثانية والنصف ظهراً، حيث أعطى القائد الأعلى للقوات المسلحة العراقية أوامره للجيش باجتياح دولة الكويت، بدأ الهجوم من كتيبة مشاة بحرية عراقية مدعومة بالدبابات على جزيرة بوبيان من الجنوب،

وكانت خطة الاجتياح تقوم عبر أربعة محاور رئيسية بواسطة سبع فرق من قوات الحرس الجمهوري، لأنها كانت الأفضل تسليحاً وتدريباً ضمن القوات المسلحة العراقية.

وكانت الفرق الأربعة هي،

(1) الفرقة المدرعة حمورابي على محور صفوان.

(2) فرقة الفاو مشاة على محور أم قصر الصبية.

(3) فرقة المدينة المنورة المدرعة على محور الرميلة.

(4) فرقة توكلنا على الله المدرعة على محور الأوسط.

وكانت الخطة أن تتحرك هذه الفرق في توقيت واحد ليتم تطويق دولة الكويت في وقت واحد، وبالفعل في نفس التوقيت التي بدأت فيه الفرقة الأولى الاشتباك على جزيرة بوبيان كانت هناك عمليات إنزال قوات بحرية وجوية في العاصمة، ودارت اشتباكات عند قصر دسمان مع قوات الحرس الأميري، وبحلول نهاية اليوم الثاني من أغسطس كانت القوات العراقية قد سيطرت على غالب الأراضي الكويتية، إن لم يكن كلها عدا جزيرة تدعى جزيرة فيلكا، هذه الجزيرة ظلت حاميتها العسكرية تدافع عنها ببسالة حتى فجر اليوم الثالث من أغسطس ولكن في النهاية سقطت تحت قبضة الجيش العراقي، وتم ضم الكويت للعراق وإلغاء جميع السفارات.. وصمت يبدو أنه متأثراً من تذكر ما حدث.

فسألته: وما هي الأسباب التي جعلت العراق يحتل الكويت ويجعلك تطلق على هذا اليوم، اليوم المشؤوم؟!!

فقال: لن أحدثك بتلك النعرة والقومية العربية وهذة المرادفات، أعلم أنك لن تصدقها، ولكني سأحدثك بالمنطق السائد اليوم (أينما تكن مصلحتي فثمّ وجهتي)

في البداية دعني أخبرك شيئاً، منذ استقلال العراق عام **1932** واستقلال الكويت عام **1961**، وكانت الأمور تسير بين الإخوة بشكل جيد عدا تلك المناوشات البسيطة التي كان يتفنن فيها عبد الكريم قاسم حاكم العراق آنذاك، هذا الرجل أراد في أحد الأيام أن يتم المطالبة بالكويت لتكون تحت الحكم العراقي، مدعياً كذباً أنها كانت تحت الحكم العراقي وإحدى محافظاته ولكن التقسيم الإمبريالي هو من منحها الاستقلال.

كلنا يعرف أن عبد الكريم قاسم كان كاذباً، فالكويتيين لم يكونوا يوماً ما عراقيين، صحيح أن موقعها الجغرافي يبعد فقط ستين ميلاً في البحر عن البصرة وهي مدينة ساحلية وأهلها مسلمون إلا أنها لم تكن يوماً عراقية، "يبقى القديم على قدمه مهما حاول الزمان طمس معالمه".

فالكويت أهلها من الحجاز وقد حضروا إلى هذه البقعة منذ ما يقارب خمسمائة عام، وواضع أول حجر أساس لهم رجل اسمه صباح مطير.

لذلك الجميع كان يعرف أن قاسم كاذب، وهذا ما دفع الجامعة العربية للتدخل ومواجهته، وأرسلت قوات عربية من السعودية والجمهورية العربية المتحدة والسودان إلى الكويت.

هذه الأزمة رغم كبرها حينها وعرفت باسم أزمة عبد الكريم قاسم، إلا أنها انتهت في أكتوبر **1963**، عندما اعترف العراق رسمياً باستقلال

الكويت وتم الاعتراف بالحدود العراقية الكويتية، منذ ذلك الحين والكويت والعراق كانا يزدهران جنباً إلى جنب دون خلافات تذكر...،
حتى تولى صدام حسين الحكم، ولا زالت الأمور تسير بشكل جيد خاصة مع طفرة النفط التي حدثت في الخليج والعراق.
أزدهرت البلاد، وبعد تولي الرئيس صدام حسين الحكم اهتم بالجيش والتسليح وأعاد الهيبة والقوة والسيادة للعراق، حتى جاء عام **1980** وبدأت الحرب العراقية الإيرانية أو "حرب الخليج الأولى" لأن صدام كان يرى أن هذه الحرب هي دفاع عن الإخوة في الخليج، ولكن الحقيقة أن العلاقات بين العراق وإيران كانت غير مستقرة، ويشوبها القلق من ترسيم الحدود خاصة أمر السيطرة على "شط العرب" والذي كان تحت السيادة العراقية الإيرانية طبقاً لـ" اتفاقية الجزائر" عام **1975**، وهذا الاتفاق أصبح ملغياً بعد إعلان الحرب من الرئيس صدام حسين.
استمرت الحرب ثماني سنوات كاملة حتى صدر قرار من مجلس الأمن رقم (**598**) بوقف إطلاق النار.
نتيجة حرب الثماني سنوات لم تحقق الغاية المطلوبة لهذا الجانب أو ذاك فالجميع أدعى النصر.
ولكن دائماً الحروب تستنزف الثروات والخيرات للمنتصر والمهزوم على حد سواء، فرغم انتصار الجيش العراقي كما أعلنت القيادة إلا أن هذه الحرب

كانت نقطة فارقة في تاريخ العراق وتعامله مع أمريكا، فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية شديدة التخوف من السياسة العراقية خصوصاً بعد ما حققته من نتائج وخبرات بعد حرب أيران،وقد وضح هذا التخوف الأمريكي جليا عندما بدأت العلاقات الكويتية العراقية تتوتر بعد انتهاء حرب إيران مباشرة، وقد كان سبب التوتر أن السعودية والكويت قد قاموا بمد ومساعدة العراق بالنفط والمساعدات طوال الثماني سنوات، وصلت فيه المساعدات الكويتية للعراق إلى ما يقارب أربعة عشر مليار دولار، وكان الرئيس صدام ينوي سداد الديون من خلال رفع أسعار النفط وتقليل نسبة منظمة أوبك، وهنا ظهر الوجه الخبيث للغرب وخاصة أمريكا، حيث جعلت السعودية والكويت تزيد إنتاجهما من النفط وهذا عكس ما أراده الرئيس صدام حينها.

صرح صدام علناً آنذاك أن الحرب العراقية الإيرانية كانت بمثابة دفاع عن البوابة الشرقية للوطن العربي، وأنّ على السعودية والكويت التفاوض على الديون أو إلغاءها، ولم يكتفِ بطلبه إلغاء الديون فقط، بل أنه طلب منهم منحة بقيمة عشرة مليار دولار.

هنا زاد التوتر ولم تثمر الجهود الدبلوماسية في تخفيف حدة التوتر، زاد الخلاف بين الأشقاء، ساهمت في زيادة الخلاف الإدارة الأمريكية الماكرة بشكل خفي، حتى أنه في يونيو عام **1990** عندما التقى الرئيس صدام مع

السفيرة الأمريكية "إبريل غلاسبي" بشأن الصراع الكويتي العراقي شجعت العراق على الغزو عندما قالت (أن أمريكا ليس لها رأي بشأن صراع عربي عربي)، ولأنه ورغم انتصار العراق في الحرب مع إيران كما قالت القيادة، لكن كانت إحدى نتائج هذة الحرب هي تدمير موانئ العراق على الخليج العربي، مما شل حركة التصدير العراقي للنفط، وكانت الحاجة تجبر على البحث عن بديل وسواحل أخرى، وكانت الكويت هي أفضل الخيارات، ولهذه الأسباب والتبعات تم احتلال الكويت، وكان هذا هو اليوم المشؤوم.

فقد ظهر هنا الوجه الآخر والحقيقي لأمريكا التي قالت لا شأن لنا بصراع عربي عربي، ولكن في الحقيقة هي كانت تنتظر فرصة لإضعاف الأسد العراقي الذي بدأ يؤرق نومتهم.

فمنذ بداية الهجوم والتوغل العراقي في الكويت وبدأت تشجب وتستنكر، ولم تكتفِ بذلك بل رأت أن في ذلك فرصة سانحة وعلى طبق من ذهب للتوغل في الخليج العربي، فتم تشكيل ائتلاف احتشد من خلاله ما يقارب الخمسمائة ألف جنديّ في السعودية.

في بداية الأمر صرّح بوش الأب أنّ الهدف من الحملة هو منع القوات العراقية من اجتياح الأراضي السعودية، وسميت هذه الحملة باسم (عملية درع الصحراء)، وبدأت القوات الأمريكية بالتدفق إلى السعودية في السابع من أغسطس، وبدأ مجلس الأمن في إصدار قراراته التي يطالب فيها العراق بالخروج من الكويت.

في هذه الأثناء زاد عدد تشكل الائتلاف العسكري وأصبح مكون من أربع وثلاثين دولة ضد العراق لتنفيذ قرارات مجلس الأمن بانسحاب العراق دون قيد أو شرط.

لم تترك أمريكا الماكرة طريقاً لاستمالة رضا العالم عن توغلها في السعودية إلا وسلكته وكأنها حربها.

وهنا تظهر نواياها الخبيثة فقد زادت عدد جنود الائتلاف إلى ما يقارب المليون جندي كانت نسبة الجنود الأمريكان فيه تتعدى السبعين بالمئة.

استمرت الحرب الإعلامية والتصريحية بين أمريكا والعراق حتى يناير عام **1991**؛ فقد وافق مجلس الشيوخ الأمريكي ومجلس النواب علي استخدام القوة العسكرية لتحرير الكويت.

وفي وسط هذه الأجواء المشحونة والمتوترة لم يبدِ الرئيس صدام أي ردة فعل إيجابية، فقد كان عنيداً ومتهوراً وظلّ هكذا وتجاهل قرار مجلس الأمن النهائي والمهلة المحددة لخروج العراق من الكويت.

وهذا ما رأته أمريكا الوقت المناسب لجعل لعبتها حقيقة على الأرض ورأت في ذلك سبباً واضحاً ومباشراً ومُرضياً أمام العالم لضرب العراق.

وبدأت عملية تحرير الكويت كما أطلق عليها الأمريكان وقوات الائتلاف، ولكن في الحقيقة هي عملية كسر العراق وهذا وضح جلياً في طريقة الحرب، فقد قصفت العراق بما يقارب مائة ألف طن من المتفجرات

مما أدى إلى تدمير البنية التحتية للعراق طوال الأربعين يوماً، لتظهر النوايا الحقيقية لأمريكا فقد أراد الذئب أن يجد لنفسه مكان بين الإخوة ولن يستطيع فعل ذلك بوجود أخ قويّ حتى وإن كان قد أخطأ، وليتمكن الذئب من حجز مكانه كان لابد من قهر القوي واستغلال كل العوامل ضده وقد كان للذئب ما أراد.

فقد تم تدمير البنية التحتية للعراق بسبب القصف، وقد نجمت هذة الحرب أيضاً عن موت الكثير من الأطفال في العراق بسبب سوء التغذية والقصف وضعف الخدمات الصحية والحصار المستمر وانخفاض الناتج الإجمالي المالي في العراق بسبب الحصار الشامل على العراق.

وتم تجميد مبالغ كبيرة للعراق في البنوك العالمية بناءً على قرار مجلس الأمن الدولي، لم تكن هذه فقط تبعات اليوم المشؤوم الذي أخبرتك عنه بل الأدهى من ذلك أنه عمق من حالة عدم الاستقرار في المنطقة وخروج العراق من المعادلة العربية، فقد استطاع الذئب الأمريكي تصوير العراق على أنه شيطان رجيم، ساعده على ذلك السياسة المتهورة من صدام حسين الرجل الأكثر غموضاً في العالم، ولأن أمريكا لم يكن هدفها فقط خروج العراق من الكويت والتدخل المباشر في المنطقة واقتسام كنوز الذهب الأسود.

بل كان هدفها تدمير العراق؛ لأنها تعرف أنه لا نصيب لها في الذهب الأسود وصدام حسين في سلطة دوله قوية، وهذا ظهر جلياً عندما استجاب صدام

حسين أخيراً لقرار مجلس الأمن رقم (660) و قرر الانسحاب استجابة للقرار.

هنا وتحديداً في 27 فبراير عام 1991 حدثت مجزرة طريق الموت والتي كان عدد ضحاياها يفوق عدد ضحايا العراق والكويت معاً أيام الغزو العراقي للكويت عشرات المرات، وصمت..

فسألته: وما هي مجزرة طريق الموت؟

فقال: بعد أن استجاب صدام حسين لقرار مجلس الأمن وأعطى أوامره لجنودنا بالانسحاب من الكويت وخروجهم من منفذ العبدلي الذي يقع بين الحدود العراقية الكويتية خروج آمن، في هذه اللحظة كانت إدارة بوش الأب الماكرة تجهز نفسها لارتكاب مجزرة تعد الأسوأ في تاريخ الإنسانية،

فبعد أن وصلت القوات العراقية إلى الطريق 80 المؤدي إلى البصرة أعطت أوامر صريحة وحازمة للقوات الأمريكية "أن لا تدعو شخصاً ولا شيئاً عائداً من الكويت حياً"، وبالفعل تم قصف كل شيء بأفواج من الطائرات المقاتلة الأمريكية على طول الطريق من مركبات و جنود عراقيين.

نتج عن هذا القصف تدمير أكثر من 200 مركبة، وقتل أكثر من 11 ألف جندي عراقي في سويعات قليلة كان من بين الضحايا نساء وأطفال ومدنيين عراقيين كانوا يعيشون في الكويت وانسحبوا معنا خشية الأعمال الانتقامية بحقهم، لكن كان الموت أسرع لهم ونالهم القصف وقتلوا

واحترقت جثثهم داخل المركبات المستهدفة، تم قتلهم رغم إعلان وقف إطلاق النار وإعلان العراق الإنسحاب بضمان من الأمم المتحدة الغادرة التي شاركت في الجريمة عبر خداعها للعراق، وجعله يسحب جنوده ويكدسهم على الحدود ليلاقو ربهم، لم ينجُ منهم إلا قليل كنت واحداً منهم، رأينا الموت بعيوننا، جثث إخوتنا احترقت أمامنا.

لتظهر نوايا أمريكا الحقيقية، وأن المشركين لا عهد لهم.

استطاعت أمريكا تحقيق مخططها بعد هذا اليوم.

فقد دمرت الاقتصاد العراقي وتواجدت وبقوة في الخليج، زاد التوتر والغضب والكره بين الرئيس صدام والإدارة الأمريكية، ولكن لم يستطع الرد حينها؛ فقد كان العراق كما رجل كبير منهك يتكئ على عصا.

حالة من الغليان كانت تجتاح الشارع العراقي في هذا الوقت، ولكن الحقيقة أن الغليان كان يأتي متخفياً في الليل فيجعلك تلعن إدارة صدام على قرارها الخاطئ الذي أودى بها إلى هذا الهلاك والدمار، لكن ما أن أتى الصباح حتى يتبخر الغليان، وتجد نفسك لا إرادياً تعلن الولاء والتأييد لأكثر رجل غموضاً في العالم، نعم هو الرجل الأكثر غموضاً في العالم وكان من أشد مواقفه غرابة أنه ومع اشتداد الأزمة وتصاعد الحشود ضد الرجل قام بضرب إسرائيل ب**39** صاروخ وتحدي الجميع أن يكملها **40** .

صدقني يا بني هذا الرجل اختلفت معه أو اتفقت لا يمكنك أن تنكر أنه كان من أشجع رجال القرن. وصمت....

فتعجبت وسألته: ولكن إن كان الحصار الأمريكي والقصف للعراق قد خلق كل هذا الدمار فكيف استطاع النهوض مرة أخرى؟!!

هنا ابتسم الرجل ابتسامة سخرية وقال:

يبدو أنك من أولئك البشر الذين تأثروا بالإعلام الكاذب، والتلميع الذي لاينتهي..

فقاطعته قائلاً: أتريد أن تقنعني أن الإحصائيات كلها كانت كاذبة؟!!،

كيف والعراق كان يصنف من أقوى الجيوش في المنطقة وله ترتيب عالمي.؟!

فقال: اهدأ يا بني وأفهم الحقيقة إن أردت وتابع، أنا لا أنكر أن الجيش العراقي وقد كنت فرداً فيه كان من أقوى جيوش العالم وهذا كنت ومازلت أفتخر به لكن كيف حدث هذا؟!!

أقترب لأخبرك ولكن قبل أن أخبرك أريدك أن تفهم شيئاً أنا لم أكن مبالغاً عندما قلت لك أن صدام كان الرجل الأكثر غموضاً في العالم بل كنت قاصداً لكل حرف فيها، هذا الرجل شهد العراق في عصره تقدماً عسكرياً ومكانة إقليمية وعربية في وقتٍ وجيزٍ، لم يكن ذلك ليحدث مع أي اسم آخر أياً كان من هو، وأيضاً في عهده لم يكن هناك مجال للطائفية

شيعي، سني، كردي، أياً ماكنت تنتمي فأنت عراقي ولك حقوق لا جدال فيها.

كانت الأمور تسير بالتساوي على كل الطوائف في السراء والضراء دون تمييز، هذه حقيقة وشهادة بل زد على ذلك أن الكرامة العراقية في عهده توسعت لتشمل حتى المرأة؛ فقد كانت تلقب بالماجدة، حتى أنه في عهده لأول مرة أُعطي الأكراد حكماً ذاتياً، وهو ما كان شبه مستحيل مع إدارة مثل إدارته كانت تحكم بالحديد والنار.

زد على غموضه أنه كان من أشجع رجال القرن وبلا منازع، كان عنيداً يمتاز بالدهاء، حتى أن أمريكا ورغم قوتها في ذلك العهد ما كان باستطاعتها مواجهة هذا الرجل وحدها، فتحامت بائتلاف قوّى عزيمتها لتحقيق خطتها،

-هذه الخطة لم تكن فقط تهدف إلى التواجد في منطقة الخليج ونهب ثرواته من النفط؟

-لا يا بني ففي العام **1989** وصلت تقارير استخباراتية للبيت البيضاوي في واشنطن تفيد بأن الجيش العراقي بلغت قوته حدا فاق المسموح به لدولة في الشرق الأوسط بما في ذلك تهديداً لنا ولحليفتنا إسرائيل.

هذه الأيام كان الجيش العراقي هاجس العالم ورابع أقوى جيش فيه، فكانت من أهداف خطة أمريكا الخبيثة هي أضعاف الجيش العراقي لأن ذلك الجيش مع رجل عنيد وماهر وغامض وعروبي وقومي مثل صدام يعني أن لا حياة هادئة لأمريكا في الشرق الأوسط، وهذه النتائج حدثت بالفعل وحققت أمريكا أهدافها المرجوة من خطتها، فكما أخبرتك تم تدمير الاقتصاد العراقي من خلال الحصار وتدمير البنية التحتية من القصف، وهذه الأمور دفع ثمنها الشعب العراقي بأكمله وبكل طوائفه.

لم يكن هناك استثناء لأحد ولا لطائفة حتى أبناء البعث ورفقاء صدام دفعوا الضريبة مثلما دفعتها كل طوائف الشعب.

لم يكن هناك أحد مستثني من مطرقة صدام إذا أخطأ،

فقد أعدم وزير الصحة في عهده،

وأعدم زوج ابنته حسين كامل الرجل الأقرب له حينها بتهمة الخيانة.

في عهده ما كان لك حياة يهنأ فيها بالك إذا كنت مخطئاً هذه حقيقة وليس مجازاً.

وأزمة اقتصادية حتى وإن كانت كبيرة مثل هذه لا يمكن لها أن تصمد كثيراً في وجه رجل عنيد وقوي مثل صدام.

هذا الرجل الذي ما رأيته يوماً قط مفزوعاً من شيء أو يبدو عليه آثار الرعب والخوف،

ولتفادي هذه الأزمة قام بوضع قواعد صارمة عقوبة من يخالفها الأعدام، وكان على الجميع التحمل، فقد منع الاستيراد للمواد والبضائع حتى الغير مشمولة بالحظر، وتم الاعتماد على التصنيع والإنتاج الداخلي الذي لم يكن مدعوماً دعماً جيداً قبل الانهيار نتيجة خروج العراق من حرب طويلة مع إيران وكانت كل البوصلة الاقتصادية والمالية موجهة للبعد الحربي،

بدأ التقشف منذ عام **1992** تتضح آثاره على حياة الشعب كاملاً، انهارت العملة حيث أصبح الدولار الواحد يضاهي الآلاف من الدنانير بسبب قرار طبع العملة بكميات كبيرة للتداول الداخلي، لم يقف الحد عند هذة القرارات المنهكة بل إن النظام أصدر تعليمات صارمة أخرى تصل عقوبة مخالفتها إلى حد الإعدام بتهمة التخريب الاقتصادي وخيانة البلاد؛ فمثلاً تم منع صناعة كل أشكال الحلويات للحفاظ علي السكر....

هذه القرارات لم تكن كلها مرحباً بها، خاصة لدى الجميع فكانت هناك حالة غليان تحت المياه الراكدة ولكن القبضة الحديدية لنظام صدام خففت الوطأة.

طبقت أمريكا المقولة التي تقول (إذا أردت ترويض الشيطان فاصنع له جحيماً يليق به)

فصنعت لصدام الشيطان في نظرهم وللعراق جحيماً فاق الحدود، استمر الوضع حتى عام **1994**،

هنا أيقنت أمريكا أن العراق لن تقوم له قائمة، وكان أكثر المتفائلين في تلك الحقبة يتمنى أن يعود العراق فقط مجرد شعب متوسط المعيشة بجيش يستطيع فض النزاعات الداخلية ليس إلا.

وعندما أدركت أمريكا أن الجحيم قد لاق بالشيطان عقدت اتفاقية ما يسمى "الغذاء مقابل النفط ورفع الحصار"، والتي من شأنها توفير الغذاء والدواء للشعب العراقي مقابل النفط، وكان من المؤمل أن تسد هذه الاتفاقية احتياجات الناس لكنها في الحقيقة لم تسد ما يزيد عن خمسين بالمئة من الحاجة الحقيقية للشعب بسبب معوقات تنفيذها وارتباطها بقضايا سياسية فقد أرادت أمريكا إذلال العراق والتأكد من انهيار الشيطان.

والحقيقة أن أمريكا خططت لكل شيء كما يرام وبطريقة وحلول يعجز أعتى ملوك الجان عن وجود مثلها، لكنها نسيت أهم شيء وهو "أن الشيطان خلق أصلاً من الجحيم"، وأنّ صدام رجل ولد من رحم المعاناة ويمتلك من القوة والذكاء والعناد ما يجعله يراهن مع نفسه أولاً قبل غيره

أن تعود العراق لسابق عهدها، صحيح أن الرهان صعب، فكيف لبلد لا يتعدى تعداد سكانه ثمانية عشر مليون نسمة أن يصنع جيشاً وقوة عسكرية تضاهي أعتى القوات العسكرية في المنطقة بل والعالم خاصة بعد الخروج من هذة الأزمة ؟!!

عاد صدام ليكثف جهوده نحو الجيش متناسياً ما حدث نتيجة الحصار، بدأ في الأعمار، زادت القوة العسكرية وترسانة الأسلحة عن عهدها السابق للحصار، عاد الإعمار في العراق، بدأت مؤسسات الدولة تعمل بشكل سليم مرة أخرى ولكن تبعاث الحصار لازالت موجودة ويعاني منها الشعب العراقي ولكنها أصبحت أقل وأخف حدة من أيام الحصار.

وفي سنوات قليلة عادت العراق لمكانتها العسكرية والإقليمية التي تؤرق الأمريكان وكان لابد من وجود حل للتخلص من صاحب أقوى نظرة لا يمكنك الصمود أمامها، حقيقة كان صاحب هيبة "والرجل صاحب الهيبة يرافقه النجاح أينما رحل وارتحل"، وقد نجح صدام مرة أخرى في العودة وبقوة إلى الساحة وعادت العراق لتكون صمام أمان للعرب وشوكة في حلق أمريكا وابنتها المدللة إسرائيل.

بات التقدم العسكري والمكانة العراقية تهدد مصالح أمريكا في المنطقة، عاد العراق للصفوة كما كان وعاد لطاولة اللعب من جديد وبقوة.

كان ما يحدث هو حلم لكل عراقيّ يتمنى ألا يستيقظ منه، فمن كان يتخيل أن المستحيل سيصبح واقعاً؟!

وكان الحلم للعراقي هو كابوس للإدارة الأمريكية.

ولأن صدام كما أخبرتك أخطأ في غزو الكويت وكانت سبباً في كل ما حدث؛ فقد تعلم الدرس جيداً لأنه كان رجلاً ذكياً وقوياً ويمتاز بالدهاء رغم أنه لم يعترف بالخطأ أمام أحد إلا أنه فهم سياسة أمريكا الخبيثة.

ولأنه لم يكن يمتلك الذكاء والدهاء فقط بل أيضاً كان عنيداً، أصبح الجميع كارهاً كان أو محباً للعراق يعلم أن صدام سيرد على أمريكا بأي طريقة ويثأر لتلك الأيام الخوالي. لكن أيضاً الجميع لا يعرف كيف ومتى سيحدث هذا؟!!!

صحيح أن الوضع هادئ ولكنه هدوء يسبق العاصفة، فكلا الطرفين الأمريكي والعراقي يجهز عدته وعتاده من أجل ضربة قاضية.

الحقيقة أن صدام تعلم من درس الكويت والآن فقط ينهض ويكرّس كل قوته العسكرية استعداداً ليومٍ آتٍ لا محالة، ولكنه لن يتدخل في دول الجوار ولن يعطي أمريكا تلك الفرصة مرة أخرى، وأيضاً أمريكا بخبثها ولؤمها تتابع عن كثب مجريات الأمور، وتسابق الزمن من أجل إيجاد حل لوقف هذا الموج الهائج وهذا الإعصار الصدامي القادم.

المشهد باختصار صدام تعلم الدرس ويتحصن وراء لسانه ويكثف الحشود العسكرية، وأمريكا تسابق الزمن كي توقعه في ورطة كما حدث في غزو الكويت لتستطيع حشد الرأي العام والدول ضده، الأجواء مستعدة لهطول مطر الرصاص، السماء أصبحت ملبده بالغيوم ولكن كيف ومتى ومن أين سيبدأ هطول الامطار؟!!

وعلى رأس مَن؟!

هذا هو السؤال الحقيقي الذي كان بانتظار إجابته الجميع.

الأمور باتت معقدة صدام لم يتورط كما حدث في غزو الكويت، ولم يمنح أمريكا البوصلة والحجة التي تريدها فهل سينتهي الأمر؟!

أحمق من يقول سينتهي، فأمريكا بخبثها تنتظر كالأفعى كي تلدغ وصدام صامت، الدقائق والساعات تحسب قبل الأيام والكل يترقب، أمريكا هدفها واضح وستسعى لتحقيقه مهما كانت النتائج وأياً كانت الأسباب، وعندما فشلت في خلق سبب حقيقي لأن ذكاء صدام قد حرمها ولم يخطئ مثل مرته الأولى قبل عشر سنوات، بات من الضروري على أمريكا البحث عن سبب آخر حتى وإن كان سبباً واهياً لا أساس له من الصحة، المهم عندها وفي المقام الاول تحقيق حلمها والقضاء على صدام والجيش العربي العراقي والاستحواذ على ثروات العراق والمخزون النفطي العراقي الكبير والهائل، فبدأت الاتهامات للعراق بامتلاك أسلحة دمار شامل، وبدأت الوفود من

الوكالة الدولية للطاقة الذرية في البحث والتفتيش في العراق وهم يعلمون جيداً أنهم يبحثون عن سراب.

لكنها إرادة الإدارة الأمريكية المتعنتة والمتغطرسة حينها، فتذرعت أمريكا وبريطانيا الحجة تلو الأخرى لاقتناص فرصة احتلال العراق. وثائق سرية حكومية بريطانية أكدت وجود علاقة قوية بين شركات النفط وعملية غزو العراق، الحكومتان البريطانية والأمريكية لديها مطامع بالاستحواذ على الثروة النفطية الهائلة في العراق والتي لوحت لها وكشفتها شركات النفط.

ففي سبتمبر عام **2002** كشفت شبكة تلفزيون سي بي سي الأمريكية الإخبارية عن وثائق تظهر أن قرار غزو العراق اتخذ بعد ساعات من وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر **2001**، وهذا ما يؤكد أن الهدوء كان هدوء يسبق العاصفة وأن الغليان كان في أعلى درجاته تحت المياه الراكدة،

- في هذه الفترة كانت الأحداث تتسارع وتشير إلى أنّ أمراً كبيراً سوف يحدث في منطقه الخليج العربي....

وفي ليلة عيد الميلاد **2003**، أي قبل الغزو بشهرين ونصف، صرح وزير الدفاع الأمريكي "دونالد رامسفيلد" تصريحاً هو الأخطر في القرن العشرين حين وقع على أمر تعزيز كبير للقوات الأمريكية في كل من الكويت وقطر والبحرين.

-لم يقف الأمر هنا بل بدأ التحرك الغير مباشر،

35,000 عسكري أمريكي يتوجهون إلى منطقة الخليج بينهم عناصر من مشاة البحرية المارينز،

-متحدث باسم وزارة الدفاع البنتاغون يعلن أن قوة عسكرية قوامها **7,000** من عناصر المارينز تلقت الأمر بالإبحار استعداداً لحرب محتملة مع العراق،

-حاملة الطائرات أرك رويل تغادر ميناء بورتثموس جنوباً وتلحق بها في الأيام التالية نحو **15** سفينة حربية بهدف تعزيز القوات البحرية البريطانية العسكرية في الخليج،

-أيضاً سبع سفن بحرية سارت من كاليفورنيا إلى الخليج وعلى متنها **10,000** عسكري من عناصر المارينز البحرية الأمريكية،

-ومن بريطانيا تحركت عشر مدمرات وفرقاطات وكاسحات ألغام وسفن تموين فضلاً عن غواصة بقيادة حاملة الطائرات أرك رويل تحسباً لعمل عسكري ضد العراق.

في هذه الأثناء قرأت شعوب العالم السيناريو المرتقب وكانت الشعوب أذكى من قادتها أو إن شئت فقل أشجع من قادتها، فاندلعت مظاهرات منددة بالحرب في عدد من البلدان منها أمريكا نفسها والهند واليمن واليابان وبريطانيا، وسوريا وتركيا والعراق وغيرها، لكن الإرادة للإدارة

الأمريكية دائماً عكس إرادة الشعوب، طالما هناك مصالح لها لن تهتم لأمر الشعوب حتى وإن كان من ضمنها شعبها.

ففي هذه الأثناء ومع زيادة الغضب لدى الشارع في كل بقاع الدنيا يخرج بوش في مطلع يناير عام **2003** ليعلن أن بلاده جاهزة ومستعدة للتحرك عسكرياً إذا رفض العراق نزع أسلحة الدمار الشامل الموهومة وغير الموجودة من الأساس ولكنها كانت الحجة هذه المرة للإدارة الخبيثة،

لم يقف الأمر عند هذا الحد بل التقى بعدها بأيام قليلة مع السفاح بلير في البيت الأبيض وحددا معاً موعد بدء الحملة العسكرية بشكل مبدئيّ ليكون في العاشر من مارس، لم يكن بوش فقط هو ودميته بلير الذين ضربوا بإرادة شعوبهم عرض الحائط بل إنّ هناك أكثر من **20** دولة من زبانية أمريكا قدموا المساعدات لأمريكا كما حدث في الغزو الأول، لم يقف الحد عند الأرعن ودميته والدول المتواطئه فقط، بل زد عليهم ومع الأسف بعضاً من القوى وأحزاب المعارضة العراقية الذين باعوا كل شيء من أجل اللاشيء والأيام أثبتت لهم ذلك.

- بدأت العاصمة بغداد وباقي المدن العراقية تدخل أجواء الحرب والترقب وشعر العراقيون باقتراب المعركة التي كانت تلوح في الأفق، وقبل بدء القصف بثمانية وأربعين ساعة،

-نفذت القوات العراقية بكافة تشكيلاتها تمارين بالذخيرة الحية، وتدربوا على حرب المدن.

-المستشفيات أخليت من المرضى استعداداً لاستقبال الجرحى.

-الهيئة العامة للطرق والجسور تتأهب لإعمار جسور بغداد السبعة على نهر دجلة والتي تربط الكرخ بالرصافة في حال تم قصفها،

-وزارة التجارة تسلم المواطنين خمس حصص غذائية بهدف توفير خزين كافي من المواد الأساسية،

بات الجميع ينتظر بدء الخراب والدمار والقصف وربما الموت على أحر من الجمر، نعم أقصدها بتنا ننتظر البدء، فالانتظار مؤلم وأشد إيلاماً حتى من سكرات الموت نفسها فما بال من ينتظر الموت؟!!

وبعد ساعة ونصف الساعة من انتهاء مهلة الثماني وأربعين ساعة بدأت الحرب بضربات صاروخية جوية، استهدفت أبرز عناصر القيادة العراقية لكنها لم تصب أحداً منهم.

وفي فجر **20** مارس وتحت اسم "الصدمة والترويع"

جاءت الضربة الأولى حيث تم إطلاق **40** صاروخ كروز من سفن وغواصات أمريكية على بغداد، أصبح الدخان يعم أجواء بغداد وعدد من المدن بسبب الهجمات الصاروخية المكثفة،

استمرت عمليات القصف الجوي والصاروخي المكثف طيلة أيام الحرب،

استطاعت أمريكا رغم قلة حجتها أن تصنع ائتلافاً وأطلقت عليه تسمية "ائتلاف الراغبين"

وكان هذا الائتلاف يختلف اختلافاً كبيراً عن الائتلاف الذي خاض حرب الخليج الثانية، لأنه كان ائتلاف صعب التشكيل واعتمد على وجود جبهات داخلية في العراق متمثلة في الشيعة في جنوب العراق بزعامة رجال الدين والأكراد في الشمال بزعامة "جلال طالباني" "ومسعود برزاني"، وهذه الجبهات كانت أخطر على العراق حتى من القوات الأمريكية والبريطانية، وهذا ظهر جلياً في أيام الحرب، فالمترقب والمتابع للحرب في تلك الفترة كان ينتظر رداً قاسياً من الجيش العراقي، أو على الأقل دفاعاً مستميتاً، ولكن ماحدث على الأرض كان مخزياً ويدعو للإحراج، ليس لكوني عراقياً أقول هذا، وإنما ما حدث يؤكد أننا كعرب لم نتعلم الدرس بعد.

صحيح أنّ القوات الأمريكية استخدمت عنصر المفاجأة وكان الهجوم قويّاً بريّاً وهجماتٍ جوية مكثفة، لكن هذا لا يعني ولا يدل على أن رابع أقوى جيش في العالم يحدث فيه ما حدث بهذه السرعة... وصمت،

فسألته؛ وماذا حدث لرابع أقوى جيش في العالم وكيف سقط بهذه السهولة كما تقول؟!

فتنهد وقال؛ هذه هي الصورة التي ستظل مشوشة ولم تتضح معالمها حتى الآن، وربما لا زال هناك وقت طويل لتتضح معالم الصورة الحقيقية، وإن كان العاقل لايحتاج لوقت لفهم ما حدث، لكن عليك أن تعلم أنّ الغزو

كان سريعاً بالفعل، وخوفاً من تكرار ما حدث في حرب الخليج الثانية من إشعال النيران في حقول النفط، قامت القوات البريطانية بإحكام سيطرتها على حقول نفط الرميلة وأم قصر والفاو بمساعدة القوات الأسترالية وهو في الحقيقة ما قامت هذة الحرب لأجله وهو "النفط".

في هذه الأثناء توغلت الدبابات الأمريكية في الصحراء العراقية متجاوزة المدن الرئيسية في طريقها تجنباً لحرب المدن، كانت القوات البرية الأمريكية تتوغل بسرعة رهيبة، الغريب في الأمر أنها لم تكن تواجه أي مقاومة من الجيش العراقي، كان التعويل على البصرة أنها ستقاوم ومنها ستكون شرارة المقاومة حتى القوات الأمريكية نفسها ظنت ذلك، فقامت بمحاصرتها لأسبوعين كاملين خوفاً من وجود فدائي صدام هناك، ولكن أيضاً استطاعت القوات الأمريكية اقتحام المدينة بسهولة وبدون مقاومة من القوات العراقية.

المشهد غريب والأخبار تصل إلينا في بغداد التي مازالت تحت القصف نحاول فهم شيء لكن لا خبر يقين، المدينة تسقط تلو الأخرى دون مقاومة تذكر، كنا في الحقيقة نظن أن هناك خطة محكمة من القيادة، ربما باستدراج القوات الأمريكية إلى بغداد ليحدث ما يسمى بالكماشة عليهم، في هذه الأثناء وصلت أخبار من شمال العراق تؤكد قيام مجموعة من القوات الخاصة الأمريكية بإنزال المظلات في شمال العراق لأن البرلمان التركي لم يسمح لهم باستعمال الأراضي التركية، فقامت هذة القوات بدعم

معلوماتي استخباراتي من الأحزاب الكردية وبإسناد من القوات الجوية بدك معاقل حزب أنصار الإسلام.

بعد ثلاثة أسابيع من بداية الحملة البرية بدأت القوات الأمريكية تحركها نحو بغداد حيث مقبرتهم كما كنا نعتقد.

كان الجميع يراهن على بغداد ولكن ما حدث في باقي المدن كان نفس ما حدث في بغداد، وكأن الجيش العراقي قد تبخر، وخذها مني الجيش العراقي لم يدخل هذة الحرب هذا كذب وهراء الحقيقة أن الجيش قد باع القضية ولم يقاتل لا من أجل صدام، ولا من أجل العراق فسقطت بغداد دون مقاومة تذكر،

وقامت مجموعة من المدرعات الأمريكية بشن هجوم على مطار بغداد الدولي، لم تقابل إلا بمقاومة خفيفة لا ترتقي حتى للذكر من قبل بعض الجنود العراقيين، فقط كان هناك بعض من العمليات الانتحارية لتنظيم القاعدة، كان من ضمن هذه العمليات عمليتان قامت بهما سيدتان عراقيتان كانتا قد أعلنتا عن عزمهما القيام بأحد العمليات الاستشهادية من على شاشة التلفاز العراقي، يبدو أنهم قد فهموا مبكراً ما فهمه الرجال ولكن للأسف بعد سنوات.

في التاسع من إبريل أعلنت القوات المسلحة الأمريكية بسط سيطرتها على كافة الأراضي العراقية، وهذا هو اليوم الذي نقلت فيه وكالات الأنباء مشاهد الإطاحة بتمثال صدام حسين بعد إعلان سقوط بغداد،

في التاسع من إبريل أيضاً دخلت القوات الأمريكية مدينة كركوك وتكريت، وكما قيل أنّ لكلّ حادث حديث فإن بعد أيّ سقوط هناك تبعات وكوارث، وكانت من أكثر الكوارث التي حدثت بعد سقوط بغداد.

-عمليات السلب والنهب التي حدثت والتي نقلتها شاشات التلفاز عبر العالم، حيث قام الجيش الأمريكي بحماية مباني وزارتيّ النفط والداخلية فقط، وهذا كما أخبرتك سبب حملتهم الهوجاء، وبقيت جميع المؤسسات الأخرى البنوك ومشاجب الأسلحة والمستشفيات بدون أي حماية، وكانت من أكثر الأماكن التي تعرضت للنهب والسلب، وتركت جروحاً عميقة في ذاكرة العراقيين، وجميع العالم هو سرقة المتحف الوطني العراقي، حيث سُرِقَ من المتحف **170,000** قطعة، وكانت بعض من هذه القطع ضخمةً في الحجم ومن المستحيل سرقتها من قبل أفراد عاديين، وكأنّ الهدف من الحملة والغزو ليس فقط سقوط صدام ولا تدمير رابع أقوى جيش في العالم، ولا حتى النفط الذي كانوا يحافظون على وزارته ومنابعه، بل أيضاً كان الهدف محو تاريخ العراق، وهدف آخر هو الأسوأ في التاريخ وقد وضح ذلك جلياً عندما سمحت القوات الأمريكية والبريطانية، أن تشمل أعمال

النهب والسلب آلاف الأطنان من الذخيرة الحربية من معسكرات الجيش العراقي وما يقارب مئة طن من اليورانيوم، حيث قامت شاحنات بنقل محتويات المركز إلى جهات مجهولة، وكأنّ القوات الأمريكية تعرف أين ستذهب هذه الأسلحة وأنها لن توجه لهم.

بعد سقوط المدن واستيلاء القوات الأمريكية على المدن بدأت عمليات مسح شاملة في جميع المحافظات بحثاً عن القيادات العراقية السابقة إما بالاعتقال أو القتل والتصفية، فقد تعلموا الدرس وعرفوا أن هذه القيادة رغم اختلاف طوائفهم الدينية إلا أنهم كانوا يؤمنون بشيء واحد اسمه الوطن، وظهر هذا جلياً في محاكمتهم التي بثت على القنوات على مرأى ومسمع من العالم الذي اكتفى بالتصفيق تارة والتعاطف تارة أخرى،

وقد نتج عن عمليات البحث التي تلت سقوط بغداد اعتقال "برزان التكريتي أخ صدام حسين" غير الشقيق،

واعتقال "سمير عبد العزيز" عضو القيادة لحزب البعث العراقي،

وأيضاً اعتقال "حكمت إبراهيم" وزير المالية العراقي.

وفي **21** إبريل **2003** أعلنت أمريكا عن سوء نيتها علانية، عندما أرسلت "جاي غارن" الجنرال المتقاعد كأول حاكم مدنيّ للعراق، ما بعد صدام حسين، وهذا ما تم رفضه من فئة كبيرة تخاذلت معهم في البداية ظناً منهم أن أمريكا تساعدهم فقط في القضاء على صدام حسين، ولكن هذا

القرار جاء معاكساً لرغبتهم بل أكد نوايا أمريكا الخبيثة. ولتقم أمريكا بتكميم الأفواه رغماً وبالحديد والنار وسعت عمليات البحث والتمشيط.

نتج أيضاً عنها اعتقال "محمد حمزة الزبيدي" عضو مجلس قيادة الثورة العراقية، واستسلام "طارق عزيز" نائب رئيس الوزراء العراقي، واعتقال "فاروق حجازي" سفير العراق السابق والمسؤول الثالث في جهاز المخابرات العراقية، وكان من أحد المسؤولين عن التخطيط لاغتيال بوش الأب، واعتقال "هدى عماش" الملقبة بالسيدة انتراكس، وبدأت الضغوط الدولية تطالب أمريكا بالإعلان عن نتيجة البحث عن أسلحة نووية في العراق كما ادعت وجيّشت الجيوش لهذا السبب أمام العالم.

-في الرابع والعشرين من إبريل وتحت ضغط المطالب تعلن أمريكا عن الفشل في العثور على أسلحة دمار شامل في العراق ويخرج بوش بتصريح مقزز لا يخرج إلا من فمٍ نتنٍ قائلاً: "إننا قد لا نتمكن من وجود أسلحة الدمار الشامل لأن صدام دمرها قبل الحرب"، إذاً أيها الأرعن بفرض صحة نظريتك فما الداعي للحرب من الأساس على سبب تم تدميره إن كان قد صح امتلاكه من الأساس؟!!!

أعقب هذا التصريح تصريح آخر لـ"جاك سترو" وزير خارجية بريطانيا يعترف فيه بعدم وجود أيّ دليل ماديّ لأسلحه الدمار الشامل في العراق.

لتتضح الرؤية أكثر وأكثر لكل من باع كل شيء من أجل اللاشيء.

بدأ الحقد وحالة من الغليان داخل الوسط العراقي وخاصة أولئك الذين تم تغييب عقولهم، فبدأت منظمة التحرير إعلانها الجهاد وبدأت المقاومة فعلياً في إثبات تحركاتها على الأرض، ولكن كان الوقت قد فات و"استوطن الأغراب في بلدي ودمروا كل أشيائي الحبيباتي".

أيقن الجميع أنّ أمريكا قد صنعت لهم قصراً من الرمال سرعان ما ذهب أدراج الرياح عند اصطدامه بأول موج قادم، أمريكا أيضاً لم تسكت على هذه المقاومة بل واجهتها بشتى الطرق، نتج على إثرها الآلاف من العراقيين القتلى واعتقال عدد كبير من الأسماء ورموز النظام السابق منها السكرتير الشخصي لصدام الوفي "عبد الحميد محمود التكريتي" واستشهاد "قصي وعدي" نجلي صدام وأحد أبناء قصي وإلقاء القبض على نائب رئيس الجمهورية "طه ياسين رمضان".

أعقب هذة الاعتقالات العديد من التفجيرات، مثل تفجيرات خطوط النفط رغم الحماية البريطانية وتفجير سيارة مفخخة قرب السفارة الأردنية وسيارة مفخخة في مدينة النجف تؤدي إلى اغتيال المرجع الشيعي "محمد باقر الحكيم".

وهذا كان له أثر كبير في سير الأحداث فيما بعد، ولمعرفة الجميع بخطورة هذه الخطوة، فقد قام الرئيس صدام في تسجيل صوتي ينفي أي علاقة له بمقتل المرجع الشيعي، وعلمت أمريكا أن صدام بوجوده يستطيع قلب الطاولة على رؤوس مخططهم القذر فكثفت عملياتها التي لا تهدأ في

البحث عن صدام، واستطاعت القبض عليه في الثالث عشر من ديسمبر عندما قامت القوات الأمريكية بمهاجمة مزرعة صغيرة في قرية الدور بمدينة تكريت في عملية سميت بعملية "الفجر الأحمر".

بعد هذه العملية واعتقال صدام، وكل قادة النظام السابق وعدم وجود أسلحة الدمار الشامل، انتهت كل الأسباب التي أعلنتها أمريكا لدخول العراق ولا داعي لوجودهم الآن.

فبدأت تتعالى الأصوات التي تطالب بخروجهم، ولكن هذا لم يحدث وردت أمريكا على ذلك بمزيد من الإجراءات التعسفية والقمعية والقتل والتشريد لأن الهدف الحقيقي من الحملة والغزو وهو الاستحواذ على النفط العراقي لم يتحقق بعد.

هنا أدرك حتى الشيعة التي كانت تكره صدام، أنّ الأمر لم يقم من الأساس لأجلهم ولا لأجل إسقاط صدام.

ولكن دائماً نحن العرب لا نستفيق إلا بعد وقوع الكارثة، هنا قرر التيار الصدري بقيادة "مقتدى الصدر" القيام بانتفاضه مسلحة مشتركاً مع جيش المهدي ضد الائتلاف وقوات الاحتلال في معظم المحافظات وسط وجنوب العراق، قوبلت هذه الانتفاضة بحصار هو الأشرس من نوعه على مدينة الصدر وقامت القوات الأمريكية بسلسلة من العمليات العسكرية والحصار الخانق على مدينة الصدر بهدف تدمير القاعدة العسكرية لجيش المهدي المعارض.

بدأ الحصار في مطلع إبريل عام **2004** حدث فيه الكثير من المعارك الشرسة التي لم تواجهها أمريكا عند احتلال بغداد نفسها، تكبدت الكثير من الخسائر البشرية والمادية، ولم تستطع السيطرة على المدينة وانتزاعها من مقاتلي جيش المهدي الذين أحكمو قبضتهم وبشدة على المدينة، وفشلت أغلب محاولات أمريكا في السيطرة رغم كثرة المحاولات. ومع كثرة المحاولات التي يعقبها الفشل فهمت أمريكا أن القتال المسلح لن يفيد، فقامت بعقد اتفاق لوقف إطلاق النار وقد كان هذا الاتفاق سُمّاً وضع في العسل، ولأن أمريكا أيقنت وعلمت خطورة الموقف فقد فشلت كل محاولاتها لدخول مدينة اتحد أهلها فماذا لو اتحد كل أبناء العراق وطوائفه على قلب رجل واحد؟!!

هذا هو السؤال الذي أرّق نوم الكيان الغادرح فبدؤوا بالبحث عن سبيل وطريق للخروج من هذا المأزق حتى يستريحوا،

ووجدوا ضالتهم تلك في لعبة رخيصة خسيسة قذرة اسمها "الطائفية" التي لم نسمع بها من قبل في العراق.

بدأت نواة هذا المسمى تطفو على السطح، حين قام الحاكم المدني السابق "بول بريمر" بتأسيس مجلس الحكم المنحل ووضع قانون إدارة الدولة بإيعاذ من أمريكا التي يمثلها، وأصبح قانون إدارة الدولة هو محور الدستور الجديد للعراق، وقامت الولايات المتحدة وهي السلطة الفعلية في العراق حينها بتقسيم العراقيين بسياستها الخبيثة إلى سنة مقاومين للاحتلال وشيعة متعاونين معه، تناست الخبيثة أن المقاومة المسلحة الأشرس حدثت في مدينة الصدر الشيعية، وقامت بإشعال فتيل الأزمة، استفادت حينها من أخطاء بعض الزعماء السنة والشيعة على السواء لتوصل البلاد إلى ما وصلت اليه، فأصبح القتل على الهوية عبر عمليات التطهير الطائفي من الجانبين السنة والشيعة، وهي في الواقع حرب طائفية قد تؤدي في أحسن الأحوال إلى تقسيم العراق وهو ما تريده أمريكا، ولم ينتبه له في بدايته الشعب العراقي.

تهيأ الجميع واستعد، وانقسم الجسد الواحد وتمزق، وباتت فصول الحرب الطائفية معلنة وتتكرر بنسخ متشابهة في مدن العراق المختلفة، وكأن من يدير المشهد ويصدق على كل فصل هو طرف واحد يتلاعب بالجميع، حل القتل والدمار والخراب والتشريد معظم مدن العراق أن لم يكن كلها، بات القاتلُ عراقياً والمقتول عراقياً، عدا إقليم كردستان الذي أعلن قادته عن وجوب حصول العراقيين من غير سكانه على تأشيرة دخول إليه وكفالة أيضاً، ليصبح العراقي مكفولاً في بلده، وهو أسوأ أنواع الاضطهاد، ولكنه

كان مجبراً ليهرب من رائحة الموت المنتشرة والتي تجوب أرجاء بلاد الرافدين باحثة عن قتلى جدد وكأن لسان حالها يردد هل من مزيد؟

كان الأمرُ مخزياً ويدعو للإحراج وبات الصراع بين العشائر السنية والشيعية شبه يومياً يتجسد في مشاهد مختلفة، ولكنها باتت محفوظة من كثرة تكرارها، فإما مهاجمة مساجد يؤمها الشيعة وأخرى سنية، وإما تفجير سيارات مفخخة في أحياء مختلفة من بغداد لتجمع السنة تارة وتجمع الشيعة تارة أخرى، مما زاد من حدة التوتر والصراع الطائفي.

زاد القتل الجماعي على أساس طائفي، والغريب في الأمر هي الخطة الأمنية المتعثرة، فالأعمال التخريبية والقتل يتحرك بشكل متوالية هندسية متصاعدة، والضحايا دائماً مدنيون والمتهم يبقى مجهولاً والجميع يدين العمليات، ومع ازدياد العنف والفلتان الأمني بدأت عقول العقلاء تبحث في داخلها عمن وراء هذه الأحداث ومن المستفيد؟!

بدأ ذلك من داخل مجلس النواب الذي ارتفعت أصوات داخله تنتقد أداء الحكومة المتقاعس والمخزي في وضع حد لهذه المهزلة، بدأت أصابع الاتهام كلها تشير إلى العدو الغاصب، وزادت المشاورات والنقاشات الساخنة داخل مجلس النواب شارك في هذه المناقشات أكثر من **25** عضواً معظمهم ألقى المسؤولية على الحكومة، واتهمها بالعجز في مواجهة كارثة تحلّ بالعراق اسمها الفتنة الطائفية تأكل في الجسد العراقي كما تأكل النار الحطب.

بل إنّ البعض كان أشجع من ذلك مثل الشيخ "جلال الدين الصغير" نائب الائتلاف الشيعي، ومن شخصيات المجلس الأعلى عندما قال أنّ الخطة الأمنية وضعت من قبل أمريكيين وحمل الأمريكان علانية مسؤولية التدهور الأمني، وقال إن الأمريكيين إما لا يعرفون بشعاب مكة أو أنهم لا يكترثون بما يجري!!!

وطالب بوضع خطة أمنية عراقية ومنح العراقيين الصلاحيات الكاملة وعندما تعنتت القوات الأمريكية في تنفيذ طلبات الرجل وماطلت، أجبروه على رفع صوته أكثر لينادي باستدعاء ممثلين عن قوات الاحتلال إلى البرلمان لمعرفة دورهم فيما يجري من تدهور أمني؟

طلبه هذا كان شبه مستحيل تحقيقه، ولكنه شجع الكثير للحديث معه مثل السياسي المخضرم الكردي "محمود عثمان" الذي دعا في مجلس النواب إلى إعلان الفشل في الملف الأمني إذا لم تكشف الأسباب، وعليه بدأت كل الساسة وشيوخ العشائر السنية والشيعية يطالبون بمراجعة الذات وتقييم السياسيات السابقة للخروج من هذه الأزمة التي تعصف بالعراق،

هذه المبادرة التي سبق بها مشايخ العشائر والنواب، كانت لها نتائج على الأرض وكشفت النية النتنة للأمريكان، عندما اقترح "زلماي خليل" السفير الأمريكي في العراق التعاون والتنسيق مع الأحزاب السنية وخاصة الحزب الإسلامي، لم يتوقف الأمر فقط عند الاقتراحات، بل قذفت أمريكا بمعظم أوراقها لتكشف عن نيتها الحقيقة عندما بدأت وبسرعة

في تشكيل ميليشيات سنية واصفة دورها بالاستراتيجي وشددوا علي تقوية ميليشيات سنية لإيجاد توازن مع الميليشيات الشيعية التي اتهمها الجنرال "كيسي" قائد القوات الأمريكية في العراق بأنها أخطر من تنظيم القاعدة، ليعلم العالم أن أمريكا بإمكانها التحالف مع الشيطان نفسه إذا كان في ذلك تنفيذ مخططها، فمنذ أيام قليلة كان الشيعة أحبابهم والسنة أعدائهم ولكن عندما استفاق الشيعه أصبحوا أخطر من تنظيم القاعدة ووجب عليهم التعاون مع السنة أعداء الأمس، لتنقلب كل أوراق اللعب علي الطاولة، وليتضح هدف أمريكا من الغزو، فهي تريد حصة العراق في النفط وعدم وجود أي مقاومة لها، ولا مانع لديها أن تفعل في سبيل ذلك مالا يخطر على بال عاقل أو مجزوم، وليعلم العالم أنّ الكفار لا عهد لهم ولا زمة.

-حاولت أمريكا من خلال الميليشيات السنية التي سلحتها زيادة وتيرة العنف الطائفي، واستخدامها كضغط على التيارات السياسية الشيعية، لحل الميليشيات المرتبطة معها منها جيش المهدي التابع للتيار الصدري وفيلق بدر الذي تحول فيما بعد إلى "منظمة بدر" الذي يتزعمه "سيد عبد العزيز الحكيم" وهذا ما تم رفضه شكلاً ومضموناً، ردت أمريكا على ذلك الرفض، فتم توجيه ضربات قوية لجيش المهدي ومنظمة بدر، لم يقف الأمر عند الضرب بل شمل عمليات اعتقالات واغتيالات وعمليات عسكرية موسعة، زادت عمليات القمع والترهيب وزادت الميليشيات المسلحة حتى

وصلت إلى 37 ميليشياً، الرؤية باتت واضحة لدى الجميع سنيّ وشيعيّ أنّ أمريكا هي من تدير اللعبة ولصالحها فقط.

ومع زيادة العنف والقتل والفلتان الأمني زاد وعي عقول مشايخ العشائر والنواب سنة وشيعة.

أصبح الجميع يندد بما حدث ويندد بالميلشيات التي بدأت تتواجد أمام مرأى ومسمع من الجميع، وتمتلك مختلف الأسلحة، كل أصابع الاتهام أصبحت متجهة إلى أمريكا، وأنّ لها دوراً خطيراً في تدهور الوضع الأمني في العراق، ساعدتها في ذلك دول مجاورة للعراق كانت تسعى إلى تغذية هذه الفتنة الطائفية داخل العراق، والتي تسببت في نزوح مليون عراقي من مناطقهم والآلاف القتلي والمعتقلين،

-أصبح اللعب على المكشوف عندما زادت موجات القتل الطائفي بين الميلشيات، فنزل منهم مقاتلون إلى الشوارع يحرقون المساجد ويعبثون في حياة البشر، بينما القوات الأمريكية وباقي قوات الاحتلال في مدن العراق انسحبت من الشوارع لتتيح للمقاتلين ممارسة هوايتهم في العنف الطائفي،

ومع زيادة موجة القتل الجماعي زادت معها الاتهامات المتبادلة تارة من أحزاب شيعية تتهم قوى سنية وهذه الأخيرة تتهم، ..

وفي المقابل ظهر مسلحون بعثيون يسمون الصداميين وآخرون يطلقون عليهم التكفيريين، زاد الهرج والمرج والقتل والخراب والدمار والنزوح

والاعتقالات؛ فلم يكن الجميع عقلاء حينها، تحولت مدن العراق إلى مسرح قتل جماعي وتطهير طائفي تجري على قدم وساق، تأزم الوضع واستوجب على عقلاء القوم التدخل لنبذ العنف الطائفي وإيقاف القتل، والحقيقة لم يتعنت أحد فالجميع كانوا إخوة لم نسمع عن سني وشيعي إلا هذه الأيام المشؤومة.

تم تكثيف الجهود بين مشايخ العشائر لإيجاد حلول، وكنت واحداً من هؤلاء المشايخ فقد كنت من أحد العشائر الشيعية القوية ومكانتي في الجيش قبل الاحتلال سمحت لي أن أكون واحداً ممن له باع وكلمة مسموعة بين أهله، كانت الأمور تجري بشكل جيد استطعنا جمع أكبر عدد من المشايخ والمسؤولين، ليخرجوا بتصريحات ينبذون فيها العنف وتدعو الجميع إلى طاولة المفاوضات كإخوة.

كان لهذه المفاوضات ومجالس الحل التي سعينا لها وقع وتأثير على الأرض أكثر من تأثير الحكومة في الفترات الماضية، ويبدو أن هذا أيضاً لم تكن تريده أمريكا فهذا قطعاً ضد مصالحها، فبدأت حملة اعتقالات واغتيالات أخرى في رؤوس هؤلاء العقلاء.

وفي أحد الأيام وتحديداً الثانية فجراً وعشر دقائق في منتصف تموز استيقظنا على صوت إطلاق نار كثيف ومدرعات القوات الأمريكية مدعومة ببعض القوى العراقية تحاوط الحي بأكمله، هرج ومرج لدقائق بعدها غيم السكون على المكان وإذا بباب بيتي يكسر لتدخل قوة

أمريكية من 6 أفراد توجهوا صوبي مباشرة، وقاموا بوضع الأغلال في يدي وقدمي وسرعان ما توجه اثنان منهم إلى غرفة عمار، وخرجوا به أيضاً مكبلاً في قيوده وكأنهم يعرفون ما جاؤوا لأجله،

اصطحبونا واستقلوا بنا المدرعة..!!

أحاول فهم ما يجري لكن لا أحد يجيب، أسأل الجندي بجواري عن السبب ولماذا يحدث هذا؟!!

فيضع سبابته على شفتيه متصلباً ولا ينطق بأيّ حرف يطلب مني السكوت فأسكت....

دقائق لا أعلم كم عددها مرت ونحن في المدرعة بدون حديث ولكن بخبرتي التي اكتسبتها من عملي في الجيش سنوات، ولأنني أعيش هنا في بغداد منذ ولادتي أعلم يقيناً أنهم سينقلونني إلى أحد مكاتب الأمن، فالطرقات والأحياء التي نسير فيها أعرفها وأشتم رائحتها حتى لو لم أرَها، كانت رحلة استقلال المدرعة من البيت إلى حيث وقفت المدرعة طويلة، دقائق قليلة وقاموا بإخراجنا من المدرعة، وجدت نفسي أمام ذلك المبنى الكئيب في العاصمة، أنا أعرفه رغم أني لم أعمل به يوماً أو حتى لا أذكر أنني دخلته، ولكن من منا لايعرف سجن أبو غريب؟!!

ومنذ تلك اللحظة وقد أدركت يقيناً أنّها نظرتي الأخيرة لهذا العالم الخارجي، فالداخل هنا مفقود يا ولدي واحتمال أن تخرج من هنا شبه

معدم، دار عقلي سريعاً واستجمعت كل تلك المشاهد والصور التي حركت وهزت مشاعر العالم منذ شهور ليست بالطويلة في هذا السجن، حيث تعذيب الأسرى والتمثيل بهم ووضع أسلاك الكهرباء في أجسادهم، تصلبت أطرافي من الخوف وأنا أستعيد تلك الذكريات والصور، وأتخيل أن بعد دقائق سيحدث معي مثلما حدث معهم، اقشعر بدني من الخوف حقيقة وليس مجازاً، ووسط شرود ذهني قاطعني أحد الجنود عندما اقترب مني مسرعاً، وبيده شيء وسرعان ما وضع ذلك الشيء المطاطي حول رأسي على عيني لم أعد أرى شيئاً بعدها، هنا شعرت أن السواد القاتم الذي يحل بي الآن هو سواد الموت والقبر وهذا ما أتمناه، فالموت أهون مما سوف أراه بالداخل، بعد أن وضع هذا الشيء المطاطي على عينيّ، دفعني بقوة على ظهري ثم تلاها بصفعة أقوى على رقبتي، ويداي إلى الخلف، ودفعني للسير مرغماً أمامه لا أدري إلى أين؟ !!

ولكني أعرف إلى الجحيم.

ظللتُ هكذا أسيرُ أمامه تحت وقع دفعه لي، يرتطم رأسي بجدارٍ يليه آخر، بعد عدة خطوات اقترب شخص آخر يبدو أنه جندي آخر وقاما بإحكام قبضاتهم على ساعديّ رغم أني مكبل ودفعاني أمامهما من ممر إلى آخر ثم درج داخلي ثم إلى اليمين، وقفنا، قرع أحدهم الباب. .

صوت من الداخل يتكلم العراقية، ادخل.

فتح مرافقي الباب بهدوء، ثم خبط الأرض بقدميه بكل قوة وقال: احترامي سيدي هذا هو فلان مطلوب جبناه، ثم صمتوا.....

أحاول فهم شيء لكن قبل أن أفتح إحدى شفتيّ للحديث أجد دفعة في ظهري أو على رأسي تنسيني ما وددت قوله.

في هذه اللحظات وأثناء الصمت انسلت إلى أنفي رائحة مميزة لا يوجد مثيلها إلا في مكاتب ضباط الأمن، هي خليط من روائح العطور المختلفة والسجائر الفاخرة، كل ذلك ممزوج برائحة التعذيب، ورائحة القسوة، هذه الرائحة الممزوجة ما إن تصل إلى أنف الإنسان، حتى يشعر بالرهبة والخوف، وقد شعرت بهما فأنا أعرف يقيناً ماذا يجري في مثل هذه الأماكن، فقد كنت في الجيش وأعرف، وكما قيل أهل مكة أدرى بشعابها.

دقائق مرت ونحن في هذه الحالة من الصمت، ولكني على يقين أن الرجل الذي يجلس على المكتب يطالع أوراق يبدو أنها ملف أعد لي سمعت أصوات تقليب الصفحات كثيراً، أنتظر أن يتحدث منهم أحد ويسألني لكن هذا لم يحدث، وبينما نحن هكذا إذا بالمرافق الذي بجواري يخبط قدمه مرة أخرى بقوة على الأرض ويقول: احترامي سيدي، أوامر سيدي.

وسرعان ما جذبني المرافقان ولكن هذه المرة بعنف ظاهر، خرجنا من الغرفة أو المكتب، ثم بدأت رحلة الممرات والأدراج من جديد.

وأنا لازلت معصوب العينين. ..

يا الله كم يبدو هذا البناء صغير من الخارج بينما هو بكل هذا الاتساع من الداخل!!!!

خلال سيرنا في الممرات كانت تصلني أصوات صراخ إنساني واستغاثات وكأنما أصحابها ينازعون الموت، وكلما تقدمنا خطوة في الممرات يزداد مصدر الصوت اقتراباً، وتزداد هذه الأصوات ارتفاعاً ووضوحاً، نزلنا على ما أعتقد إلى القبو في نهاية الممر، وقفنا قليلاً، ثم قام أحدهم بفتح باب وسرعان ما قام أحد مرافقي بنزع ذلك الشيء المطاطي من على عينيّ، لم أستطع رؤية شيء في البداية، ثوانٍ قليلة وبدأ البصر يعود إلى عينيّ.

وكان أول شيء رأيته هو أثر تأثير صرخة عالية بقوة، نظرت إلى مصدر الصوت، كان شاباً قد حُشر في دولاب خشبي، وكأنه مصلوب لكن قدماه مرتفعتان في الهواء، كانت تلك الصرخة أثر ضربة كابل على قدمه، وقفت مذهولاً متجمداً مكاني وأنا أرى الكابل يرتفع ثم يهوي على قدم الشاب، ثم يرتفع ناثراً معه نقاط الدم ونتف اللحم الآدمي، وبينما أنا هكذا في ذهولي، إذا بصوتٍ زاعقٍ آخر، بصوتٍ أقوى التفتُ مرغماً إلى مصدره في زاوية الغرفة؛ فوجدت رجلاً محتقنَ الوجه والزبد يرغي على زاويتيّ فمه، وأحد الجنود يضع حذائه وقدمه فوق رأسه وكأنه يساعده على استحضار الموت!!!

نظر ذلك الرجل إلى المرافق لي بغضب ووبخه قائلاً: هل ستترك ابن ال..... يشاهدنا كثيراً؟

انتفض المرافق وهو يرتعد وصفعني على ظهري بعد أن جعل وجهي في مقابلة الحائط مباشرة وهو يردد أوامر سيدي، أوامر سيدي.

وقام بوضع ذلك الشيء المطاطي مرة أخرى على عينيّ، ثم دفعني بقوة على رقبتي قائلاً: ارفع يديك لفوق يا ابن ال....

تلاه بأمر آخر، ارفع رجلك اليمين يا ابن ال.....

وأنا أنفذ دون أدنى إرادة، وكأنّ إرادتي سُلبَتْ مني، وفي الخلف يستمر ما كان يجري أسمع صوت الكابل، صوت ارتطامه بالقدمين، صوت الشاب المتألم، صوت اختناق الرجل الممدود على الأرض يحتضر، صوت لهاث الجلاد، أكاد أسمع صوت نتف اللحم التي رأيتها تتطاير قبل قليل،

أصواتٌ... أصوات....

تعطل جسدي وتصلب، لم يعد عندي عضو يعمل إلا أذني، فعند الأعمى الصوت هو السيد الحاكم يا بني.

دقائق مرت وأنا لا أعلم عددها ولكنها ثقيلة، الزمن ثقيل لا يمر، حالة من اللاتصديق تنتابني!!

ما الذي يجري؟

ولمَ أنا هنا؟

الآلاف من الأسئلة تدور في ذهني، أحاول أن أستند على الحائط بيدي وألمسه بروؤس أصابعي....

فجأة يصيح الشاب المحشور في الدولاب قائلاً: بس يا سيدي بس، والعباس ماعاد فيني أتحمل، راح أحكي كل شيء.

ابتسامة تصدر من فم المشرف على التعذيب سمعتها رغم هدوئها، وبهدوء وبلهجة المنتصر أمر الجلاد قائلاً:

"كافي اتركه وطلعه من الدولاب وخذه لعند الرائد".

رد الجلاد: أوامر سيدي.

دقائق قليلة أخرجوه من الدولاب وخرجوا به من غرفة التعذيب، دار في ذهني أنه الآن قد حان دوري، وفعلاً كنت محقاً؛ فسرعان ما اقترب مني أكثر من شخصين جذبوني وأوقعوني، وبكل عنف حشروني داخل ذلك الدولاب، منذ تلك اللحظة وحتى الآن ـرغم مرور سنوات_ لم أستطع أن أفهم أو أتصور كيف استطاعوا أن يحشروني في ذلك الدولاب الضيق، رغم بدانة جسدي بحيث أصبحت قدماي مشرعتين في الهواء، ثواني قليلة وإذا بسيخ من النار لسع باطن قدمي، صرخت وقبل انتهاء الصرخة كان الكابل قد لسعني، شعرت وكأن روحي تخرج من جسدي،

الضرب بدأ يتواصل بمنتهى القوة والسرعة وصراخي يتواصل، لا أعرف لماذا يضربونني؟!!

لا أعرف ماذا يريدون مني؟!!!

تائه أنا ومحطم أكاد أشعر أن الحياة تفارقني مع كل لسعة من السيخ أو الكابل، رغم كل هذا سمعت المشرف يتحدث مع جلادي قائلاً: بس يستوي أخبرني.

صرخت، وتجرأت قائلاً: ماذا تريدون مني أخبروني؟

صفعني الجلاد بكدمة قوية على وجهي مع كابل كان أعنف من سابقيه قائلاً: اخرس يابن ال...

فقدت الأمل في أن يسمعني هذا الجلاد الذي ينفذ فقط دون أن يفهم حتى ما هي الأسباب.

خارت قواي ولم أعد أتحمل الضربات ومع إحداها ولا أعلم تحديداً كم كان عددها بدأت أفقد إحساسي بجسدي، حالة من عدم التوازن والدوار، فقدت وعيي وغاب عقلي لم أعد أشعر بشيء ولا أعرف ماذا حدث بعدها...!!!!

بعد فترة لا أعرف كم مدتها فتحت عينيّ ببطءٍ أكاد أختنق من نتانة الروائح المحيطة بي، حولي غابة من الأقدام والأرجل، وأنا ملقى على الأرض بين هذه الأقدام المكتظة ورائحتها القذرة، رائحة الدم، رائحة الجروح المتقيحة، رائحة الأرض التي لم تنظف منذ زمن بعيد على ما يبدو، رائحة....، الأنفاس الثقيلة لأناس يقفون متلاصقين علمت بعد قليل من خلال عملية التفقد والعد أننا كنا خمسة وأربعين رجلاً في غرفة لا يتعدى

محيطها العشرين متراً مربعاً، كيف استطاعوا أن يضعونا جميعاً في هذا المكان الضيق؟!!!

الحديث بين الناس يجري همساً، الأمر الذي يولّدُ أزيزاً متواصلاً يخيم فوق الجميع.

أردت الوقوف لاستنشاق بعض الهواء وليتني ما قررت، فالآلام الفظيعة تحيط بكامل جسدي، تحاملت، تجلدت، وعندما حاولت أن أقف على قدميّ صرخت ألماً، انتبه الناس حولي، عدة أيادٍ امتدت وأمسكت بي من تحت إبطي وأنهضتني، وقفت مستنداً عليهم، اقترب مني أحدهم قائلاً: اصبر يا أخي، اصبر فإنها شدة وستزول بأمر الله لا تيأس يا أخي.

لم أستطِع أن أتحدث من شدة الذهول فقد انتابني إحساسٌ مبهمٌ، إحساسٌ يخبرني بأن كل شيء قد توقف، استعدت شريط الدولاب وما حدث في الضربات واللسع من السيخ والكابل.

آاااااه، ماذا يحدث وما الذي يجري؟!!!

نظرت حولي وجدت رجالاً، شباباً، تسمّرتُ في مكاني عندما وجدت أطفالاً، نعم أطفال في الثانية عشر والثالثة عشر، كهول، شيوخ،....

من الذي جاء بنا إلى هنا؟!!

وماذا يريد منا؟!!!

الغريب أن الجميع لا يعلم سبب وجوده هنا!!!

مر اليوم وجاء الليل وجاءت معه وظيفة "الكبيس" المسؤول عن طريقة نومنا وياالها من طريقة لاتصلح للبشر.

مرت الأيام في هذا المكان البائس لا نعرف أن اليوم انتهى إلا وقت نوبة النوم.

تعذيب ممنهج وطعام يوضع مرتين في اليوم، إحداهما خبزٌ يابسٌ وقطعةٌ من الجبن النتن، الغريب في الأمر أنني كنت أراهم يتقاتلون عليها، كنت أتعجب كيف لهؤلاء البشر أن ينسوا ذلك الإتيكيت في الطعام؟!!!

ويصبح لذة انتصار أحدهم أن يحصل على قطعة خبز أو جبن أكثر مما حصل عليه بالأمس، حتى وإن كانت من تحت الأرجل.

الأيام هنا متشابهة لا جديد فلا صوت إلا أصوات الاستغاثة التي تأتي من كل مكان ورائحة الدم المتقيحة والأرجل النتنة،

المشاهد التي تحدث لنا وأمامنا كل يوم تؤكد أنه لا يوجد من بين هؤلاء فرد واحد بات يمتلك ثقة في نفسه أو رجولته، كل شيء ما يتخيله العقل ومالا يتخيله يحدث بالداخل، باختصار مالم يخطر على بال من انتهاكات حدثت لنزلاء هذا السجن، فجميع المعتقلين وبلا استثناء تعرضوا لانتهاكات وتعذيب وإذلال جنسي وإهانة واغتصاب و.....،

حتى الطفولة والكهولة لا تشفع عند السجان في أبو غريب، لك أن تتخيل أنني رأيت طفلاً تم اغتصابه أمام أبيه لإذلال أبيه، وسامحني يا بني فرغم كثرة المشاهد العالقة في ذهني حتى الآن داخل هذا المكان الملعون ـوكأنها

أمامي الآن_ إلا أنني لا أريد الخوض فيها كثيراً، يكفيك أن تعرف أن الرجل هنا مهما عظم وكان قوياً، لا يمكن أن ينظر في مرآة مرة أخرى لنفسه، ويرى في عينيه رجلاً، فقد اغتُصِبتْ هذه الرجولة داخل أسوار هذا السجن وعلى يد سجان لايرحم وسط حالة من الصمت التام لما يسمي بحقوق الإنسان والمجتمع الدولي.

ورغم أن الدقائق هنا تمر وكأنها السنين العجاف إلا أنه قد مرّ على دخولي هذا المكان البائس ما يزيد عن ثلاثة أشهر، علمت ذلك عندما جاء الدور على محبسنا في الحلاقة، كنت أظن أنها للترفيه والنظافة، ولكن الخوف والاستنفار وكثرة القلق التي أراها فيمن سبقوني في هذا المكان جعلتني أشعر وكأننا سندخل مسلخاً للحوم وليس للحلاقة، وكان ما توقعت.

بعد دقائق فُتح الباب، وجدنا صفين من الجنود علي جانبي الباب بين الجندي والآخر حوالي المتر ونصف، وكل جندي يحمل كرباجاً ما أن يصل السجين إلى الباب حتى يبدأ بالركض، وتتلقاه الكرابيج، تتلقاه كرابيج الصف اليمين من الأمام والكرابيج اليسارية تطارده من الخلف، من يتعثر أو يقع فهو في حكم الميت لأنه كسر التناغم وإيقاع الضرب، يقف الصف من خلفه وتتجمع كل الكرابيج عن اليسار واليمين عليه ...،

قد يكون محظوظاً أن كان صاحب بنية قوية واستطاع النهوض رغم عشرات الكرابيج المنهالة عليه فقد نجا، أما من يستسلم للسقوط أو

صاحب بنية ضعيفة فقد تبقيه الكرابيج لصيق الأرض وإلى الأبد، والحمد لله لم يسقط منا سوى واحد واستطاع النهوض.

وصلنا إلى الساحة بعد أن تلقينا الضربات السريعة والكاوية واصّطفينا في الساحة.

كنت أظن أنه من وصل إلى هنا قد نجا، ولكني كنت مخطئاً.

فمن وصل إلى هنا تتلقاه كرابيج أخرى لتجبره أن ينظر إلى الحائط ويصّطف حوله، أغمضوا عيوننا بواسطة ذلك الشيء المطاطي، في الساحة كان هناك الكثير من عناصر الشرطة والكثير من البلديات، وفي أيديهم أمواس الحلاقة للذقن، وماكينات حلاقة الشعر على الصفر، ورغم ما نحن فيه وما نعانيه وعيوننا مغمضة، إلا أنني طرقت ذهني تساؤلات إنسانية كثيرة كان من أهمها، من أين تنبع هذة القسوة الخبيثة والضرب المبرح اللذان يكيلهم عناصر الشرطة للسجناء؟!

هل من المعقول أن يكون الإنسان قاسياً ولئيماً لهذا الحد؟! ومع مَن؟!

أنهم أبناء شعبه والأغرب أن معظمنا حتى الآن لم توجه له تهمة ارتكبها، كيف استطاعوا نزع الرحمة من قلوبهم بهذه الطريقة؟! ومن شجعهم على ذلك؟!

رغم أن أصواتهم ولكنتهم تؤكد أن القائمين على التعذيب جلهم عراقيين!! ولمصلحة من يفعلون ذلك؟!

الغريب في الأمر أن جميعهم بلا استثناء يتعاملون بنفس القسوة ونفس الطريقة حتى طريقة السب وكأنهم شخص واحد قام بألف دور في هذا السجن، أو أنهم حقاً كُثر، ولكن تم تغييب عقولهم بطريقةٍ ما، وتم وضع نظام آليّ لهم جميعاً يجبرهم على ترديد ما يفعلون، وكأنك تسمع فقط أصداء أصوات كثيرة تتكرر لصوت واحد هو الصوت الأصلي...،

عملية الحلاقة ليست تلك التي نعرفها ولا حتى التي خلتها سيئة بل كانت أسوأ، حلاقة الذقن هي عملية تشريح أو جراحة للوجه مصحوبة بالبصاق والشتائم، وكان بعض عناصر الشرطة يتلذذ بافتعال السعال قبل البصقة على الوجه للسجين، كي يكون البصاق مصحوباً بالمخاط وتلتصق بالوجه البصقة.

وياله من عذاب وإهانة سوف يتعرض لها السجين إذا قام بمسح تلك البصقة.

أما حلاقة الرأس فمع كل سحبة ماكينة على الرأس ضربة قوية بالماكينة نفسها على المكان المحلوق مع وابل من الشتائم العفنة، ومع كل ضربة ماكينة إما أن ينفر الدم أو تظهر كرة صغيرة مكونة من الدم في الرأس مكان الضربة،كنت أظن أن هذا حدث لي وحدي، وأن حظي كان سيئاً وأوقعني مع أحد الجنود السيئين، ولكن ما أن انتهينا من ذلك اليوم المشؤوم وعدنا إلى مهجعنا، حتى رأيت الجميع يعاني مما أعانيه، بل ربما أسوأ مما حدث لي، حتى أنني رأيت أحدهم لا يوجد موضع لأبرة في وجهه أو

رأسه، إلا وقد تعرض لجرح غائر، مما جعلني أحمد الله على ما حدث لي مقارنة بغيري، ولكن عادت الأسئلة تطفو على سطح أفكاري من جديد، لماذا يفعلون كل هذا معنا بدون أدنى رحمة؟!

لماذا هم خبثاء بهذا القدر؟!

ما هي الدوافع النفسية لفعل هذه الأفاعيل؟!

هل هي القسوة والسادية المتأصله أو العارضة يمكن أن تنتقل بالعدوى؟!

أم هو روح القطيع؟!

وددت لو تتاح لي فرصة محادثة أحدهم لأسأله عما يدور بداخلي..

مرت الأيام والشهور تذوقنا خلالها كل أنواع العذاب والذل والهوان في كل مرحلة من مراحل اليوم، ومع كل حركة يتم توجيه الإهانات لنا، والتعذيب بكافة أنواعه من كرابيج وأسياخ من نار وكهرباء، وسحل وتمثيل بنا والسب بأفظع الألفاظ، لم يقتصر السب فقط علينا بل طال كل منا في شرفه، فالمتزوج يتم إهانته بزوجته وبأفظع الألفاظ، والسجين الذي لم يتزوج كان السب بأمه أو بأخته وتزيد الأساليب والكلمات قذارة إذا كان المسجون لديه بنات.

كنت دائماً أتساءل في نفسي هل هذه الطريقة في التعامل والسب للتسلية فقط عندهم أم أنها نهج؟!!

وما الدافع لديهم للتركيز على هذا النوع من السب؟

هل هي عقدة الجنس والكبت الشرقية لديهم ويفرغونها من خلال السلطة التي يمتلكونها على السجناء؟!!

ولكن كيف والقائمين على التعذيب ليس كلهم عراقيين!!

أم هو نهج مدروس، الغاية منه تحطيم الإنسان وإذلاله من خلال المرأة باعتبارها أعلى قيم الشرف لدى المسلمين والعرب سواء كانت زوجه أو أماً أو بنتاً أو أختاً؟!!!

فشرف المرأة لدى الشرقيين عموماً هو ألّا تمارس الجنس خارج نطاق الزوجية وأي سلوك لها في غير هذا الاتجاه قد يدمر العائلة بالكامل ويلحق بها العار...،

انتهى النهار وجاء الليل وموعد نوبة نوم ومعها وظيفة الكبيس، بتنا ليلتنا وفي الصباح الباكر وقبل إدخال الطعام، فتح الجنود باب المهجع ودخلوا بطريقة وكأنهم ألف ثور هائج قد دخل هذا المكان، حالة من الهيجان حدثت في المهجع نتيجة الضرب بالكرابيج والشتم وبين كل سب ولسعة كرباج يصرخون وجهك على الحيط، وجهك على الحيط،

منذ دخول أول جندي بهذه الطريقة وقفز جميع السجناء وأداروا وجوههم إلى الحائط، وقفت معهم وجهي للحائط ولا أدري ماذا أفعل؟!!

استفقت على كرباجٍ يهوي على خدي ويلتف على رقبتي من الخلف والجندي يصيح وجهك على الحيط.

التصقت بوجهي على الجدار والألم يسري من وجهي إلى رقبتي وكأنه تيار كهربائي.
بعد ما يزيد عن عشر دقائق خيم الصمت التام من الجميع فلا صوت إلا صوت أحد الجنود يصيح بصوت عالٍ انتباااااه.

خبط جميع عناصر الشرطة أقدامهم على الأرض بقوة، ثم صاح نفس الصوت بعدها، المهجع جاهز سيدي..
علمنا فيما بعد أنه مدير السجن الجديد، أخذ يتمشى من أول المهجع إلى آخره بين صفين من عناصر الجنود، ثم خرج من المهجع،
بعدها الصوت يصيح للجنود أريد عشرة منهم بالخارج، لم أجد عناءً في فهم لماذا يريدون عشرة منا بالخارج، فهم قطعاً ستمارس فيهم كافة أنواع التعذيب والإذلال احتفاءً بمدير السجن الجديد،
ولا أعلم إن كان هذا لسوء حظي أم لحسن حظي؟!!
فقد كنت واحداً من العشرة الذين تم اختيارهم، وسرعان ما وضعوا ذلك الشيء المطاطي على أعيننا وأخرجونا خارج المهجع.
أغلقوا المهجع، ساقتنا الكرابيج إلى الساحة كانوا يتفننون في إيلامنا، بعد مرور ما يقارب الساعة والنصف تحت حرارة الشمس ولسع الكرابيج والكابلات، ووضع الأقدام على أجسادنا تم وقف التعذيب وقاموا بوضع الأغلال في أيدينا وأعطوا كل واحد منا مجموعة من الأوراق في يده، لا

نعرف ما هي ولكن يبدو أنها ملفاتنا وتهمنا التي لا نعرفها، اصطحبونا بعنف إلى ذلك المكان المشؤوم تحت الأرض حيث الممرات والدرج والغرف المتوفر فيها صواعق الكهرباء والدولاب والكابلات،

ماحدث معنا داخل الغرف لا يمكن وصفه بكلمات مهما عظمت، انتهوا بعد أن انتهت قوتهم وخارت قوتنا.

بدأ خروجنا من الغرف والعودة مرة أخرى ونحن معصوبي العينين في الممرات والأدراج ومنها إلى المهجع، وأثناء مرورنا في أحد الأدراج ومع كل واحد منا مرافق من الجنود حدث أمر غريب!!!!

فبينما نحن نسير امتدت يد غليظة أمسكتني من ساعدي وجرتني خارج الصف، لم يعترض مرافقي ولم يتحدث وهذا ما أكد لي أن اليد التي تمسكني أحد القيادات الرفيعة، فوجدتني لا إرادياً أنكس رأسي حتى التصقت بصدري كنوع من الاحترام له والإذلال لي، وكأنهم نجحوا حقيقة في جعل الذل يسري في عروقنا مجرى الدم، ظلت تلك اليد الغليظة ممسكة بساعدي واليد الأخرى أخذت تلك الأوراق من يدي. أحاول فهم ما يجري ولكن صمتهم وعدم رؤيتي حالت بيني وبين ذلك!!!

مرت حوالي دقيقة أو اثنتان، بعدها دفعني مرافقي لأكمل سيري باتجاه المهجع، الغريب أنه لم يُعِد لي الأوراق!! وددتُ أن أسأل مرافقي عما حدث ولكن الخوف تملكني من لكمة أو كرباج فآثرت الصمت، وصلنا إلى

المهجع، استلقيت على الأرض حالي كحال من سبقوني، الجميع حاول مساعدتنا في تضميد جروحنا...،

مرت الليلة ولا أعرف كيف مرت؟!

كل ما أعرفه أن روحي كانت تفارقني من شدة الألم حتى أن أحد العشرة قد فارقته روحه حقاً وأخرجوا جثته من المهجع ليلاً.

وفي الصباح دخل أحد الجنود إلى المهجع وصاح نريد فلان....

هذا هو اسمي ولكني لم أستطِع الرد؛ فلا يوجد موضع في جسدي لم يصِبه الألم ماذا سيفعلون بي؟!!!!

تعالت أصوات السجناء مع الجندي مما اضطرني وأجبرني على إجابته، عندها سبني قائلاً:

لمَ لمْ ترد من المرة الأولى يا ابن ال...،

جذبني بعنف أوقفني وأخرجني خارج المهجع وقام بوضع ذلك الشيء المطاطي على عيني وساعدني مجبراً على السير، فأنا أشعر أنّ قدميّ لا تقويا على حمل جسدي..،

وصلنا إلى المكان الذي يريده، خبط الباب، صوت بالداخل يجيب، ادخل.

دخلنا، وقفت متألماً ومتحاملاً على نفسي؛ فيبدو أنني في أحد مكاتب كبار القادة، خيّم الصمت دقائق وأنا أتلوى من الألم في قدميّ، قطع الصمت جملة دعه يجلس...

لم أفهم من قالها ولمن قالها ومن يقصد؟!!!!

فمن المحال أن تكون لي ولكن الغريب أن مرافقي ضغط على كتفي لأجلس مكاني!!!

لم أصدق ما يحدث، الأغرب من ذلك أنّ الصوتَ عادَ من جديد وطلب من الجندي وضع كرسي والجندي يرد، حاضر سيدي.

ثم ساعدني على النهوض لأجلس على الكرسي، كنت أعتقد أنني أحلم!!!!!

خرج الجندي وأغلق الباب، ورغم أنني لازلت مكبل اليدين ومعصوب العينين إلا أنني أجلس على كرسي وبدون إهانات، يبدو أن الأمور تسير بخير.

مرّ ما يقارب النصف ساعة ونحن هكذا، هو لم يتكلم وأنا لم أستطِع الحديث أو توجيه أي أسئلة، رغم أني استنفدت كل طاقتي على التحمل والصبر، بعد مرور ما يزيد عن نصف ساعة من الصمت لم أسمع فيه إلا صوت تقليب الأوراق دخل الجندي وأوقفني، الغريب أكثر في الأمر أنه لم يدفعني ولم يسبني، بل بدا الأمر وكأنه يساعدني، أخذني في الخارج ووصل بي إلى زنزانة أخرى غير المهجع الذي أعيش فيه منذ شهور طويلة، أدخلني تلك الزنزانة وقام بفك القيود وأزال من على عينيّ الغطاء، أصابني الذهول عندما نظرت في هذه الزنزانة، ففيها كل شيء منسق ومتناسق، نظيفة، بها سرير، مقارنة بالمهج، هنا فندق خمس نجوم، طلب مني الجندي تغيير ملابسي وارتداء ملابس جديدة قد أعطاها لي، منذ دخولي هذا المكان

والنظافة تحيط بي من كل جانب وتغمرني، فراشي نظيف، شرشف أبيض نظيف، بطانية جديدة، غيار داخلي جديد وناصع البياض!!

بدأ الأمل يدب داخلي من جديد، بعد أن فقدته وظننت أني هالك هنا لا محالة.

مرّ ما يزيد عن أسبوع كامل وأنا في هذه الغرفة أو الزنزانة النظيفة، لا يفتح بابي إلا وقت تقديم الطعام لي، وهو طعام أفضل من ذلك الطعام الذي يقدم لمن هم في المهجع.

في اليوم الثامن فتح الجندي الباب وأخبرني أن هناك زيارة لي، لم أصدق في البداية ما سمعته!!

اصطحبني إلى مكتب القائد وهناك وجدت أخي عبد القادر.

جلسنا جلسة مطولة زادت عن الساعتين، أخبرني فيها بإجابات لكل الأسئلة، فمدير السجن الجديد هو أحد أعز أصدقاء أخي ويعرفني وقد قرر مساعدتي ولم ينوِ الإفصاح عن ذلك، وأخبرني أيضاً أن سبب وجودي هنا هي محاولاتي الحثيثة لوقف العنف الطائفي في الخارج، وأن هذا يضر بمصالح وجهات عليا وقوية تتحكم في المشهد السياسي العراقي الآن،

أخبرني أيضاً أنّ الأمورَ بالخارج وصلت ذروتها في العنف والقتل، وأنّ جميع الأطراف بلا استثناء شيعة وسنة أجرموا بحق الشعب، واستطاع من له المصلحة في ذلك تهييج الوضع،

وقال أيضاً أنّ خروجي من هذا المكان مرهون بعدم تدخلي في الأمر مرة أخرى، وأنْ أبتعد قدر المستطاع عن المشهد السياسي؛ كيلا أعود إلى هنا مجدداً لأنّ الملف سيبقى عالقاً وأي مستجدات للوضع سوف أجد نفسي هنا لا محالة.

وافقت على الفور على كل طلبات أخي عبد القادر؛ فما عاصرته هنا وعشته خلال تلك الشهور يجعلني أحمد الله على نعمة الحرية بالخارج، ولو سأظل ما تبقى من عمري صامتاً.

انتهت الزيارة وخرج أخي بعد أن أخبرني أنّ الأمر فقط مسألة وقت سيتم ترتيبه ليس إلا وسوف أخرج بإذن الله.

عدت إلى زنزانتي النظيفة وأنا أتساءل، رغم أن ما حدث لصالحي ولكن كيف لدولتي أن تتغير هكذا ويصبح كل شيء فيها حسب الأهواء والمصالح؟!!

أين ذهب الدستور والقانون؟!!

وطفى على سطح أفكاري سؤال عن مصير من بالداخل معي؟ !!

وماذا ينتظرهم؟!!

ولكن سرعان ما عدت لأفكر في نفسي، فهنا مثل يوم القيامة نفسي نفسي...،

مرّت أربعة أيام وأنا في زنزانتي، وفي اليوم الخامس فُتحَ باب زنزانتي، أعطاني الجندي ملابس جديدة، ارتديتها واصطحبني إلى الباب الخارجي،

أخرجني وأغلق الباب ورائي هكذا بكل سهولة ودون مقدمات كما دخلت بدون مقدمات.

أخيراااااً أنا حر، شعرت بدوار في الرأس، طنين في الأذنين، زوغان في العينين، عشرات السيارات الصفراء تنطلق أمامي مسرعة في الاتجاهين، مئات الناس يهرولون بسرعة في كافة الاتجاهات....

ما انتبهت إلا على صوتٍ يناديني من خلفي، كان صوت أحد الجنود يطالبني بالابتعاد عن المكان، ابتعدت كثيراً عن المكان واستقليت إحدى السيارات وعدت إلى بيتي، كم كنت أتمنى أن أنسى ما حدث لي في الداخل ولكن يبدو أنه أصبح محفوراً بداخلي، حتى الحائط الذي أخبرت أخي أنني سوف أسير بجواره، وجدت نفسي أحتضنه وألتصق به خوفاً من تكرار ما حدث.

خرجت، ورغم أنني كنت أتوعد الحياة بالخارج بأنني سوف أعيشها طولاً وعرضاً إذا قُضي لي بالخروج من هنا، إلا أنني وجدت نفسي أنزوي داخلي أكثر فأكثر يبدو أنني خرجت من قوقعة السجن لأجد نفسي في قوقعة أخرى ارتضيتها لنفسي.

مرّت ثلاث سنوات وأنا هكذا والوضع في بلدي لم يتغيّر، القتل والخراب والشيطان يدير المشهد بالطريقة التي تخدم مصالحه، والمعاناة كل المعاناة يعيشها أبناء شعبي ولا أستطيع أن أقدم لهم شيئاً.

وذات يوم جاء أخي عبد القادر والهموم تثاقلت عليه والغضب والحزن والوجوم يسيطران على وجهه، أخبرني أن مدير السجن صديقه قد تم نقله،

وأنه لديه معلومات أن الملف الذي يخصني الآن أمام المدير الجديد وقد خرج من الأرشيف ومن المحتمل في أي وقت أن يطلبوني، وصمت..

كلماته قتلتني من الخوف عندما استعدت شريط الذكريات حيث المهجع، الساحة، الكابل، الدولاب، الحلاقة،

حاولنا التوصل إلى حلٍ ولم نجد إلا أن أبتعد عن وطني الذي ولدت وتربيت وعشت فيه كل سنواتي وأيامي، استطاع أخي تدبير هذا الأمر لي لكثرة معارفه فكما أخبرتك بلدي أصبح يحكمه الهوى والمصالح وليس الدستور، وبالفعل في غضون أيام تم تدبير الأمر وجئت إلى هنا.

بعدها بأيام داهمت قوة من الشرطة بيتي بحثاً عني، ولا زلت من يومها مطلوباً لأن أقبع في ذلك المكان اللعين وتهمتي هي خوفي على أبناء شعبي، وها هي الأيام تمر هنا أتابعهم فقط من خلال محادثات الهاتف ومن خلف الشاشات ومنذ ذلك الحين وحتى الآن يابني وأنا غريب هنا في غربتي حالي حال وطني الذي أصبح غريباً ولا يمكنني العودة إلى وطني قبل أن يعود الوطن نفسه لأصحابه، تمر الأعياد والأفراح والأحزان أشاركهم فيها فقط بمشاعري وقلبي، وتنهد.. ثم قال: أفهمت الآن يابني معنى مقولتي أن غربتي هي غربة وطن؟!! وصمت.

لم أستطع الرد عليه رغم كل ما يجول بخاطري، غير أني أومأت له برأسي ولا إرادياً وجدتني أحتضنه ولا أعلم ما الذي دفعني إلى ذلك!!

ومنذ ذلك الحين وقد أصبح أبو عمار أحد أكثر الأشخاص حباً إلى قلبي، كنت دائماً أحبّ الحديث معه، أذكر أني ذات مرة ألقيت باللوم على صدام حسين أمامه لأنه قد يكون سبباً فيما حدث له، ولكن الرجل أجابني بكل عقلانية وحيادية قائلاً: يابني قد يكون صدام دكتاتورياً أو أخطأ، كلنا بشر نخطئ ونصيب ولكن إن قارنت ما حدث في العراق بعد الغزو وأيام صدام ستقول مرحباً بأيام الدكتاتور، ولترحل هذة الحرية الموهومة إلى الجحيم، ولا تنسَ أن صدام أيضاً دفعَ مثلي ومثل باقي العراقيين فقدْ فقدَ ابنيه قصي وعدي وحفيده مصطفى، حتى هو لم يسلم وتم إعدامه، ورغم أخطائه إلا أنه لم يكن المقصود ولكن المقصود كان النفط العراقي، ونهب ثروات وخيرات البلاد وبناء قواعد للشيطان الأعظم أمريكا في العراق، وتفكيك الجيش العراقي، و...،

الشيطان الأمريكي جنّدَ خططه لتيسير مصالحه وبالطريقة التي عجز الشيطان الحقيقي عن التفكير بمثلها،

السياسة الشيطانية الأمريكية تجعلك مجبراً أن تغير تلك الصورة للشيطان بلحية التيس والحوافر، بل تجعلك تقف أمام شيطان متطور قادر على أن يغير جلده وأفكاره كالحرباء، المهم أن النتيجة تكن في صالحه، هكذا تتعامل الإدارة الأمريكية الخبيثة مع معظم الدول كل دولة بالطريقة التي تصلح لها، والغريب في الأمر يابني أن أبناء عروبتي لا يفهمون الأمر حق الفهم إلا بعد فوات الأوان.

زادت مكانة أبي عمار في قلبي، وأحببته أكثر وكنت دائمَ التقرب منه في العمل وفي البيت، كنت أحب جلساته لأفهم منه الكثير من الأمور،
مرّتْ هكذا الأيام معه، وعاد محمود الكئيب وسعد وعلى وحذيفة من مأموريتهم، عادت ضحكات سعد التي لا تهدأ وانغراس محمود بين أوراقه التي أتمنى أن أطلع عليها ويقتلني الفضول لذلك، لم يتغيّر شيء بعد عودتهم من المأمورية، نذهب للعمل بالنهار ونتسامر بالليل، الغريب أن حذيفة بعد عودته أشعر وكأن به شيء ليس على طبيعته، أصبح قليل الكلام، منذ يومين تقريباً منزوٍ في غرفته، حاولت التقرب منه لمعرفة ما حدث؟!

ولكنه أخبرني أنه فقط إرهاق، لم أصدقه ولكني لم أرد إزعاجه، بعد مرور أربعة أيام على هذا الحال ذهبنا إلى العمل في الصباح، كل الأمور طبيعية غير أني لم أجد حذيفة في مكانه، لم أنتبه لذلك إلا مع أذان الظهر، سألت عنه ولكنهم أخبروني أنه لم يأتِ اليوم، قلقت عليه، حاولت الاتصال به ولكن هاتفه مغلق، رآني سعد وأنا هكذا قلق، فسألني ماذا بك؟
فأخبرته بأمر حذيفة.

ابتسم وضحك بصوتٍ عالٍ كعادته، وطلب مني أن أطمئن فهو هكذا في هذا الموعد من كل عام يتغير ويتغيب عن العمل ولكنه سرعان ما يعود ويكون بخير، ربما يحاول فقط أن يقوم بفترة نقاهة على كل حال هو بخير تعال الآن لنحتسي كوباً من الشاي ونعود لمزاولة العمل.

ذهبت معه، طلب الشاي من عامل البوفيه، شربناه وعدنا إلى العمل وأنا شارد الذهن أفكر في أمر حذيفة، ولماذا هذه الأيام من كل عام؟!!

الأمر ليس عفوياً، هنا قطعاً سبب كبير يجبره على ذلك ولكن ما هو؟

بدأ الفضول يجري في جسدي مجرى الدم في العروق، أحاول رفع الغطاء الذي يستتر به حذيفة، أريد رؤية ما بداخله ولكن كيف؟!!!

انتهى العمل وعدنا إلى حيث نسكن، كان أول شيء فعلته الذهاب إلى غرفة حذيفة بحجة الاطمئنان عليه، دخلت عليه وجدته منزوياً في أحد أركان غرفته ووجدت وجهه يتصبب عرقاً وكأنه ينازع شيئاً ما،

ألقيت السلام لم يرد ويبدو أنه لم ينتبه لدخولي من الأساس،

اقتربت سريعاً منه ووضعت يدي على رأسه وسألته ماذا بك ياصديقي؟!

أجابني وجسده يرتجف، لا شيء فقط بعض من الإرهاق.

جثوت على ركبتي لأحتضنه فـــهو حقاً منهك، ويبدو أن الأمر نفسيّ.. ليس مرضاً عضوياً، ما أكد لي ذلك الطريقة التي ألقى نفسه بها في حضني وبين يدي، وكأنه طفلٌ تاه من أبويه وسط الزحام، علمت حينها أن ما يخفيه أمراً خطيراً، حاولت الغوص داخله واستغلال حالته تلك، ولكن دخول محمود للاطمئنان عليه حال بيني وبين ذلك، حاول محمود بكل قوة إقناع حذيفة الذهاب به إلى المستشفى للاطمئنان عليه.

لكن حذيفة رفض بكل قوة أيضاً، وأكد أن الأمر فقط نفسي وإرهاق سرعان ما يذهب.

كنت أنظر إلى محمود الذي لقبته بــالكئيب وأستغرب طريقته كيف لهذا الكئيب الوحيد الذي يعشق الوحدة وتشعر أنّ لا صديق له إلا أوراقه أن يتحول سريعاً هكذا إلى شخصٍ اجتماعيٍّ!!!

وتشعر كأنه مسؤول!! كيف لهذا الكئيب ألّا يترك واجباً إلا ويقوم به؟!

كيف له أن يتخلى عن وحدته هكذا وكآبته وسرعان ماتجده بجوارك إذا احتجت إليه؟!

أعلم أن الغوص بداخله سيكون أصعب من عملية ولادة قيصرية مستعصية، ولكن حتماً سأغوص بداخله عما قريب.

وعندما لم تفلح محاولات محمود لإقناع حذيفة بالذهاب إلى مستشفى لم يتركنا أيضاً ويعود إلى قوقعته، ولكنه طالبني بالجلوس مع حذيفة وأنه سيقوم بتجهيز طعام لنا لنأكل سوياً، رغم أنه دائماً لا يأكل معنا فهو ليس من محبي الأكل.

بالفعل خرج وجلست مع حذيفة حاولت مراراً وتكراراً الحديث معه في أمور عامة حتى يشعر أننا بجواره فــهو بحاجة إلى الاحتواء وأن يشعر أنّه مرغوب فيه وأنه ليس وحيداً،

مرّ الوقت والغريب في الأمر أن سعد الذي كنت أعتبره أقرب الأقربين إلى حذيفة لم يأتِ ليطمئن عليه حتى "علي" فقط اكتفى بالسؤال العابر من خارج باب الغرفة أما "أبو عمار" فــهو كعادته لا يعود إلى الشقة مباشرةً بعد العمل فهو يذهب إلى أسرةٍ عراقيةٍ تسكن في نفس الحي الذي نسكُن

فيه وكثيراً ما يجلس معهم فـيبدو أنه يحن كثيراً إلى تلك الحياة الأسرية التي اعتاد عليها.

أعد محمود الطعام وطالبنا أن نصعد إلى سطح المنزل فـغروب الشمس قد حان والجو رائع فوق السطح، ساعدنا بعضنا البعض وصعدنا فوق السطح، جلسنا وأكلنا وقام محمود أيضاً بإعداد كوب شاي لكل منا وأصبح حذيفة أكثر هدوءاً، جلسنا نتسامر والضحكات تتوالى شاركنا في هذه الجلسة لقليل من الوقت "علي" وسرعان ما عاد إلى غرفته.

ظللتُ هكذا أنا وحذيفة ومحمود حتى تأكد محمود أن حذيفة أصبح على مايرام، هنا استأذن وعاد أيضاً إلى غرفته للغوص وسط أوراقه التي بات الفضول يقتلني لمعرفة ما تحتويه.

بقينا أنا وحذيفة، وجدت أن كل الظروف متاحة للغوص بداخله ومعرفة مايخفيه، ولكن كيف أبدأ؟

اهتديت إلى أن أبدأ بسؤالي متى تنوي العودة إلى فلسطين؟ ألم تشتَق إليها؟!!

فابتسم ابتسامة سخرية وقال: ومن منا كمغترب لا يشتاق إلى بلده!! صدقني إذا كان الأمر بالاشتياق إليها ماخرجت منها، فمنذ اللحظة التي قررت السفر فيها وأنا أشتاق إليها، ولكن ما باليد حيلة يا صديقي هذا كأسٌ لابد لي من تذوق طعمه وصمت!!

فهمت من كلامه أنه ربما لم يحقق الهدف المالي من غربته بعد، فسألته: ما هو حلمك الذي تريد تحقيقه من غربتك هل يحتاج إلى مال كثير؟!

فقال: المال هذا قد يفيدك في أي دولة إلا فلسطين، فأنت معرضاً في كل دقيقة إما للاستشهاد أو الاعتقال، أو حتى الاستيلاء على ما تمتلكه ويتم تحويله إلى مستوطنة إسرائيلية بقوة السلاح وعندها ستصمت إجباراً وليس اختياراً، ففي بلدي عندما يخرج أحدنا إلى الشارع لقضاء أمرٍ ما فهو في حسابات أمه شهيد، قد لا يعود وحتى إن عاد! ففي أي لحظة قد يحدث قصف لأي منطقة وأي منزل تحت أي مسمى وأي سبب يودي بحياة أسرة كاملة تحت الأنقاض، لذا فـالمال الذي تظنني قد سافرت وتغربت لأجله حقيقةً لايعنيني كثيراً فمهما كثر معي المال خياراتي الآمنة لاستعماله قليلة وضئيلة جداً، فاستغربت من كلماته تلك وسألته متعجباً:

ـ إذا كان المال لا يعنيك كما تقول فلماذا أنت مغترب هنا؟!!

ـفقال: الغربة ليست دائماً من أجل المال ولا حتى الغربة أن تكون في بلد غير بلدك، ففي حالتي أنا كنت غريباً في بلدي، وكانت غربة البعد عن الوطن أحبّ إليّ من غربتي في بلدي فهربت إلى هنا.

ـسألته مستغرباً: إذاً ماذا تسمي غربتك؟!

ـفقال لي: غربة هروب.

ـفسألته: وما الذي حدث جعلك تهرب من بلدك إلى هنا في غربةٍ تلقبها غربة هروب؟

صمت قليلاً وتنهد ثم قال:

ـ في مثل هذه الأيام النحسات وتحديداً في الحادي والعشرين من أغسطس للعام الرابع عشر بعد الألفين اجتاحني شعور هو أشبه ما يكون بخروج الرّوح من الجسد، فقد كان يوماً لا يشبه أي من الأيام أبداً، ومع غروب الشمس كنت عائداً إلى مدينتي بعد يوم جميل ورائع أمضيته في مدينة حبيبتي، تلك الفتاة التي سكنت قلبي وعقلي ووريدي، وبعد ساعات طويلة من التنزه في الحدائق والسير على أقدامنا في الشوارع،

لتشهد الطرقات على وقع أقدامي مع أجمل وأرق حبيبه رأيتها في حياتي، اختتمنا اليوم بأن تناولنا الطعام داخل مطعم يدعى "عروس الشرق" اليوم كان رائعاً وجميلاً لم يعكر صفوي إلا دقائقهُ الأخيرة، حيث انتابني شعور يطبق النفس، شعرت وكأنني أودع هذا المكان وأني لن أعود إليه مجدداً، حاولت طرد ذلك الإحساس بكل ما أوتيت من قوة كيلا أعكر صفو محبوبتي رغم أنها شعرت بذلك من تعابير وجهي، تمالكت نفسي حتى أوصلتها بالقرب من بيتها واطمئننت عليها وودعتها، استقليت سيارتي واتجهت عائداً إلى بيتي، زاد شعور الخوف والقلق بداخلي وبقوة، شعرت بقشعريرة تسري بداخلي والخوف يتملكني رغم أني لا أعرف السبب!

وصلت إلى المنزل حاولت تهدئة روعي توضأتُ وصليت وجهزت أغراضي للذهاب للعمل مرة أخرى في الصباح،

وقد كان عملي حالي كـحال الكثيرين مثلي داخل الأراضي المحتلة ويحتاج إلى تصريح، وضيق الحال كان يجبرنا أن ندخل هذه الأراضي للعمل بدون تصريح،

في الصباح خرجت وحقيبة أغراضي معي، وجلست بالقرب من ذلك السلك الشائك الذي وضعه جيش الاحتلال، أنتظر الفرصة التي تسمح لي أن أعبر هذا السلك وأن أغتنم الفرصة غير السانحة لعبوري السلك، لأنني إن أخطأت فيها أو في توقيت استغلالها سوف تكون حياتي هي الثمن لا محالة. الخوف كان يتملكني قطعاً، حالي حال غيري ولكن لكل منا هدف لن يحققه إلا إن حمل روحه على كفه وانتظر فرصة عبور هذا السلك، وقد كان هدفي هو تفكيري بالمستقبل وشغلي الشاغل أن أجهز نفسي لأتزوج حبيبتي التي لم أجد نفسي إلا في حبها وكيف لا أحبها؟

وهي كانت روحاً تسكن روحي!

وكيف لا أضحي لأجلها؟

وقد كنت أرى نفسي جميلاً في كل حياتي مادمت معها.

وأثناء انتظاري فرصة عبوري السلك عاد ذلك الشعور بالخوف ينتابني من جديد، كدت على إثره أن أعود أدراجي إلى البيت ولكني تحاملت على نفسي، وبعد فترة ليست بطويلة من الصراع الذي يشب داخلي من الخوف الذي يتملكني من الأمس ولا أعرف سبباً له، وبين الأمل والتفكير في المستقبل والزواج من حبيبتي، جاءت اللحظة المناسبة للعبور وسرعان ما عبرنا ذلك

السلك اللعين وركبنا السيارة أنا ومجموعة من العمال وانطلقت بنا نحو الداخل المحتل، تبقت مجموعة منا سوف تستقل سيارة أخرى وتتبعنا..

انطلقت بنا السيارة نحو الداخل المحتل وأثناء توجهنا إلى منطقه تسمى حالياً "موديعين" تقع بالقرب من "رام الله" إذا بالشرطة الإسرائيلية تلقي القبض على المجموعة الثانية التي تتبعنا في السيارة الأخرى وكان هؤلاء العمال من نفس الحي الذي أسكنه ونعرف جميعاً بعضنا البعض، وجميعنا كما أخبرتك لا يحمل تصريحاً للعمل في هذه المنطقة، بعد دقائق ليست طويلة إذا باتصال يأتيني من أحد الأفراد الملقى القبض عليهم منذ قليل يخبرني بأنه قد تم الإفراج عنهم، تملكتنا جميعاً الفرحة من الخبر، ولكن سؤال أحدنا عن كيف تم الإفراج عنهم بهذه السرعة وخاصة أنهم لا يملكون تصريحاً للعمل؟!!!

هو ما أذهب فرحتي، وسرعان ماعاد ذلك الخوف لي، وبدأت أسأل نفسي: لماذا اتصل بي أنا تحديداً ليخبرني؟! وكيف تم الإفراج عنهم؟!

ولكني لم أرد إفساد فرحة من معي...

غلبني النوم وبعد فترة وصلنا إلى المكان الذي نقصده،كان غروب الشمس قد حان، نزلنا من السيارة في مكان العمل، هو مكان يدعى حالياً "بيتاح تكفى" يقع بالجنوب من مدينة "تل الربيع" أو ما تدعى حالياً ويلقبها الاحتلال باسم "تل أبيب" دخلنا إلى المكان الذي نسكن فيه ولكن وسوست لي نفسي أن أمراً غير طبيعي سوف يحدث، فطلبت من صديق لي

يدعى "جمال" أن نغير مكان مبيتنا الليلة، حاول إقناعي أن الأمور بخير ولكني لم أقتنع، في النهاية وافق ولم يتركني وحيداً، صعدنا إلى الطابق الحادي عشر في العمارة التي نعمل بها وهي غير مؤهلة للسكن حالياً فلازالت تحت الإنشاء.

أخذنا القليل من أغراضنا معنا حتى لا يشعر من معنا أن هناك شيء ما، وفي إحدى غرف هذه الشقة قمنا بإعداد مكان لنا للمبيت كانت غرفه بها" فرنده" أو ما تعرف بلهجتكم "بلكونة" صنعنا من بعض الأخشاب مايشبه السرير، من موقعنا هذا في هذه الغرفة وهذه العمارة كنا نستطيع رؤية مطار "بن غورون" الإسرائيلي في مدينة "اللد" وكنا نستطيع أن نسمع بوضوح صافرات الإنذار تدوي في هذه المدينة، فـقد كان الوضع في هذه الأيام مشتعلاً بين المقاومة وجيش الاحتلال،

قبل موعد نومي كعادتي اتصلت بحبيبتي طمأنتها أنني وصلت إلى العمل بخير وسلام، جرت دقائق المكالمة سريعاً أغازلها تارةً وأعُبّر لها عن حبي تارةً أخرى، أحادثها عن أحلامنا ومستقبلنا، ولكن كعادة أي حبيبين حدث نقاش على شيء ما..

أغلقنا الهاتف وهي غاضبة، لكني أعلم يقيناً أني في الصباح سوف أحادثها وينتهي كل شيء كالعادة..

فعلاقتنا كانت علاقة سوية حقاً، ومن إحدى علامات العلاقات السوية ألّا يندرج الفراق ضمن أحد الحلول مهما احتد النقاش أو أشتد الخلاف،

ورغم أننا كنا دائميّ الخلاف وعلى أتفه الأشياء، إلا أنّ الفراق لم يكن يوماً ما في حساباتنا، حقاً كانت امرأة تختلف عن كلّ النساء؛ فنظرتها كانت كالنجوم تشغل البال، وهمساتها كانت كـالغدير، وضحكتها كالسحاب ناصعة البياض، وروحها حرةً كالطيور، وقلبها أبيض كقلوب الأطفال، صدقني أحببتها ولن أحب امرأةً في هذا الكون مثلها، ليس لجمالها المتفرد؛ ولكن لأنها كانت تمتلك أعلى مراتب الإنسانية كانت تمتلك ضمير حي وقد كانت تقويني بذلك الضمير، فماذا يعني جمالك إذا كنت إنساناً بدون ضمير حيّ؟!

وقتها يمكنك أن تكون قاتلاً محترفاً لمعنويات كل من تقابله وتحدث إحباط لكل من تتعامل معه.

أيضاً كانت رحيمة فإذا كنت إنساناً بدون رحمة، يمكنك حينها أن تصبح ظلاماً حالكاً يسير بين الخلق يسلب ضياءهم ويطفئ شموعهم، ويقتل أحلامهم وأمانهم، كانت تمتلك أيضاً الأمانة والوفاء، ولو أنك تعاملت مع البشر بدون وفاء وأمانة حينها سيكون من السهل أن تصبح مارداً لا يرى أحداً، حقيقةً ما كنت أعشقه فيها يختلف عن كل تلك الأشياء التي يشترطها الرجال في حبهم للنساء، فقد عشقت إنسانيتها وعندما تصبح إنساناً يعي ماهية الإنسانية، حينها يمكنك أن تصبح بكل سهولة قديساً عابداً يصبو كل ذي روح إليه.

ولأنها كانت إنسانة بكل ما تحمله الكلمة من معنى فقد كانت تمتلك مفاتيح روحي وكانت سر سعادتي وسبباً لضحكتي ولأجلها كنت أتحمل وبكل رضا المخاطرة بحياتي لأجلها ولأجل أن تكون معي.

بتُ ليلتي أتقلب محاولاً الظفر ببعض النوم، ولكن القلق والخوف الذي ينتابني دون سبب مع غضب حبيبتي مني اجتمعوا مع عدم راحتي في هذا المكان وأجلوا نومي حتى بعد منتصف الليل بكثير،

في النهاية خلدت في سبات نوم عميق بعدما أرهق التفكير عقلي وجسدي.

وبعد أذان الفجر بقليل وجدت "جمال" يوقظني ويخبرني أن رنات ودقات هاتفي لم تهدأ، أخذت الهاتف لأعلم من المتصل فقد كان الرقم المتصل "خاص" غير ظاهر، انتابني القلق أكثر فأكثر تُرى من المتصل؟!!

الفضول يدفعني أن أجيب، والقلق والخوف يمنعاني، ومع ضغط الرنات التي لم تهدأ وجدتني لا إرادياً أضع يدي على مفتاح الإجابة...

_قلت: الو!.. مرحباً

_فسألني بلهفة وقلق أنت وين؟

_قلت أنا بالعمل شو في؟!

_فأجاب: اعتقلوا "إسماعيل"...

_أجبت بقلقٍ وتوترٍ: شووو!! من متى؟

_فقال: "هلأ عشر جبات ها هن نزلات من عندي".

_فسألته: طيب أنت وين؟

_فأجاب أنا شردت على إسرائيل...

_فقلت له: خلاص ماشي دير بالك على حالك.

_ فقال لي: وأنت كمان، سلام.

وأغلق الخط بسرعة.

وبعدها أغلق الهاتف كيلا يتم رصده أو متابعته..

أغلقت الهاتف وتملكتني صدمة أيقظتني وأبعدت النوم عن عيني..

_ سألني "جمال" بقلق من كان المتصل؟!

_ فقلت له: صديق.

_ فقال باستغراب: صديق يتصل فجراً؟!!! وماذا كان يريد؟

_ فأجبته بلا مبالاة كي يطمئن: نعم صديق واتصل فقط ليطمئن عليّ، وصمتنا...

أنا على يقين أنه لم يصدقني ولكن كيف أخبره أن المتصل هو أخي الأصغر ويخبرني باعتقال أخي الأكبر؟!

حاولت أن ألملم شتات نفسي وأتظاهر ببعض الثبات، قمت بتجهيز نفسي للعمل واستيقظ العمال، حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن تجري الأمور بشكل طبيعي ففي النهاية ماذا عساني أن أفعل؟!،

اعتقال إسماعيل واردٌ جداً فهو يعمل في صفوف المقاومة منذ فترة ونحن جميعاً نعلم ذلك ومن الطبيعي أن تتم مطاردته ومطاردتنا معه،

فهذه الأيام كانت الأمور مشتعلة بين المقاومة والاحتلال والصدام وارد والاعتقال وارد لأي بشر فينا.

ذهب كل منا لعمله وكان عملي أنا وجمال معاً في نفس المكان.

مرت دقائق اليوم كالشهور والسنين، كان يوماً ثقيلاً جداً أنتظره بفارغ الصبر أن يمر كي أعود إلى فراشي لأريح جسمي المنهك، ولكن قبل انتهاء الموعد بنصف ساعة تقريباً، إذا بصوت يصيح ويصرخ.. اهربوا.. بلشيم.. بلشيم.. وتعني الشرطة، هرعنا أنا وجمال إلى شقة في الدور السابع في أحد البنايات، كانت شبه جاهزة، دخلنا وأغلقنا الباب وجلسنا ننتظر...،

مرّ ما يزيد عن ساعة ونصف، كنا ننظر من خلال النافذة، جميع العمال ملقى القبض عليهم والشرطة في كل مكان، بعد مرور ما يزيد عن ساعتين والحال كما هو إذا بهاتفي يضيء نظرت إلى الشاشة كان رقم والدي هو المتصل أجبت.. ألو ...

ألو.... يابا..

..يابا...ألو و. ..

لا أحد يرد، فإذا بجمال يصرخ عليّ، أغلق الهاتف وأخرج البطارية كيلا يتم رصدنا، وما إن فعلت ما قال لي حتى وجدت الشرطة تحاوط البناية التي نختبئ فيها، دقائق قليلة مرت وإذا بباب الشقة يكسر وتدخل القوات إلينا وأسلحتهم موجهة إلى رؤوسنا، انتابني شعورٌ لم أشعر به من قبل ولن أشعر بمثله بعد، فقد تثاقلت أطراف جسمي حتى الكلام تلعثم في شفتيّ،

زاد السوء الذي أصبحت لا أرى غيره عندما نظر أحد الجنود إلى صورة معه ونظر لي ثم قال:

_ أأنت حذيفة؟

_ فقلت نعم أنا حذيفة.

_ فقال: يا رجل حرام عليك ثلاث ساعات أبحث عنك

وأنت مختبئ هنا، هيا تعال.

_ فسألته إلى أين؟

_فابتسم ساخراً وقال: "اعتقال"

كانت كلمته كالصاعقة في مسامعي وشعرت بغليان في رأسي وقشعريرة في جسمي لا توصف.

أخذني بمعزل عن العمال وسألني:

_ أين كل أجهزتك النقالة؟

_ فقلت: هي في حقيبتي.

_ فقال: هيا بنا إليها.

ذهبنا إلى مكان فراشي وقاموا بتفتيش جميع محتوياتي، أخذ ما يلزمه، ثم أخلعني جميع ملابسي دون الداخلية، ووضع القيود في يديّ وقدميّ وسمعته يقول بالعبرية على اللاسلكي: انسحاب ألقينا القبض على المطلوب.

لم أدرِ لماذا أنا ذلك الشخص المطلوب؟

ولا حتى في ماذا طلبت؟!!

أخذوني إلى سياراتهم بعد أن أفرجوا عن العمال،
واصطحبوني إلى مكان لم أكن أعرفه، ولكن علمت فيما بعد أنه سجن "مجدو" هنا حيث يكبر الأطفال خلف جدران هذا السجن وما شابهه ولم يكبرو على أيدي الأمهات كما أرادوا، فمنذ احتلال إسرائيل لفلسطين ولم تتوقف عن سياسة ما يسمى بالاعتقال، عرف سجونها منذ النكبة حتى الآن أكثر من مليون معتقل، ولم تقتصر الاعتقالات على شريحة معينة بل طالت حتى الأطفال والنساء.

سارت بنا السيارة طويلاً كي تصل إلى الجحيم الذي ينتظرني، كنت طوال الطريق فقط أحمد الله أنهم اعتقلوني من العمل ولم يكن من البيت، ولم أتسبب في إلقاء الفزع على قلب أمي المسنة ولا أبي القعيد، ولم يتعرض إخوتي الفتيات للإهانة من هؤلاء القردة.

ففي نهاية المطاف إذا وقع الاختيار عليك للاعتقال، سيحدث رغماً عنك من البيت أو من الشارع أو الحواجز العسكرية، في النهاية ستقع في أيديهم، ولهم طرق كثيرة في إلقاء القبض على المطلوبين حتى لو كنت حذراً ومتخفياً فإن أمر اعتقالك قد ينفذه المستعربون، من خلال فرقتين مدربتين تدريباً خاصاً وترتديان ملابس مدنية، الفرقة الأولى اسمها "شمشون" والثانية "دوفدفان"، لكن الطريقة الأكثر شيوعاً هي المداهمة الليلية، وتقوم على تنفيذها مجموعة كبيرة من الآليات العسكرية المرفقة بالجنود والكلاب، وبعد إلقاء القنابل الصوتية وخلع الأبواب والإهانة لكل

أفراد العائلة، يقود الجنود المعتقل بالضرب والتنكيل إلى أحد مراكز التوقيف التي قد تبقى فيها دون محاكمة لفترة ما، أو تحول إلى الاعتقال الإداري، وصلنا إلى السجن وحمدت الله أن الاعتقال تم دون أن يتأذى أحد بسببي، الآن فقط كل ما يدور داخلي هو أنني أريد أن أعرف تهمتي؟!

لكن لا أحد يسمح لك بالسؤال، ظلو هكذا من ممر إلى آخر ومن قضبان إلى قضبان ومن غرفة إلى غرفة ومن محقق إلى آخر،

وفي كل مرحلة يتم الإهانة والتعذيب والسب بأفظع الأشياء والألفاظ،

من أول لحظة لدخولك سجون الاحتلال يتم تعريتك من كل كرامتك تماماً كما يتم تعريتك من كل ملابسك.

بدأتِ التحقيقات التي علمت منها تهمتي، وهي مساعدة أهالي حي "الشجاعية" بعد القصف الإسرائيلي لهم، اندهشت عند سماعي هذه التهمة!!

فبعيداً عن كون أهل الشجاعية فلسطينيين عرب ومسلمين وواجبي وحقهم أن أساعدهم في محنتهم، إلا أنني لو رأيت أناساً ليسوا فقط مخالفين لعقيدتي ولكن لو كانوا حتى ملحدين وفي حاجة إلى مساعدة لساعدتهم هكذا يأمرني ديني فلماذا رآها الاحتلال جريمة تستحق الاعتقال؟!

صدقني أنا أمثل فئة كبيرة في فلسطين هدفها توفير قوت يومها لا أكثر ولا أقل، لم أنتمِ يوماً لما يسمى المقاومة فحتى تلك المقاومة يأتي بعض

الوقت ترى أسلحتهم وجهت إلى بعضهم البعض، فهذا من "فتح" وذاك من "حماس" وكل منهم يدّعي أنه على حق والآخر على باطل!!!

تشعر أن هناك عقولاً مغيبة تعاني داءً واحداً هذا الداء أنتجه صانع واحد أعطاه للسودان، فتقسمت وللعراق فأصبحت سنة وشيعة وهنا فأصبح فتح وحماس و..... ،

لذلك أنا لم أنتمِ يوماً ما للمقاومة مثل أخي إسماعيل، لكن ما فعلته مع أهلي في حي الشجاعية هو حق مفروض ولا يستحق الاعتقال، وصمت.

فسألته مندهشاً: وماذا حدث في الشجاعية هذه؟!

فقال: ألا تعرف ماذا حدث بها؟

فقلت له: لا.

فقال: في السادس عشر من يوليو للعام الرابع عشر بعد الألفين وفي شهر رمضان في هذا اليوم تحديداً، وعلى مدار أربعة أيام متتالية قام جيش الاحتلال بإلقاء منشورات ورسائل عشوائية إلى سكان حي الشجاعية والزيتون في بيت" لاهيا" يحذر سكان هذه الأحياء البالغ عددهم مايزيد عن **100**ألف نسمة، من أن البقاء في منازلهم سوف يعرض حياتهم للخطر مع إشارة بنية الجيش تكثيف الغارات على هذه المناطق، وطالب الجيش الإسرائيلي السكان بالتوجه نحو وسط "غزة" وعدم العودة إلى منازلهم.

لم يستجِب الأهالي لـهذه التحذيرات وحقاً لا أعلم أي حماقةٍ وتعنتٍ هذه التي تعطيهم الحق في إخلاء البشر من مساكنهم؟!

وحتى لو استجاب السكان وتوجهُوا إلى وسط "غزة" أين ستمكث **100** ألف نسمة في غزة المحاصرة؟!!!!

والتي تعتبر من أقل الأماكن مساحة مقارنةً بغيرها، وحي الشجاعية هو من أكبر أحياء مدينة "غزة" يقع في شرق المدينة وينقسم إلى قسمين الجنوبي أو "التركمان" والشمالي..

بدأ الجميع يترقب مرور الدقائق والساعات، يمر الليل فنحمد الله ويأتي النهار ندعو الله أن لا يتم القصف..

حالة من التوتر والقلق والخوف والترقب تصيب الجميع، وكنت أتابع الوضع عن كثب ودائم التواصل مع أبناء أخي الأكبر الذي يسكن هذا الحي.

الدعوات والصلوات ترتفع ولكن يبدو أنها لم تُجدِ نفعاً لأكثر من أربعة أيامٍ فقط، ومع بدء فجر الثاني والعشرين من رمضان الموافق "**20** من يوليو" وقع المحظور وأصبح الجحيم واقعاً، فقد بدأ الجيش الإسرائيلي القصف المدفعي المكثف والهمجي على حي الشجاعية مستهدفاً الحي بأكمله، كانت ليلة حالكة السواد بكل ماتحمله الكلمة من معنى، القصف

كان كثيف وبشكل عشوائي لم يفرق بين مقاومة أو مدنيين، استشهد خلاله العشرات وجرح المئات الذين لا يعلم عددهم الحقيقي إلا "الله"، شُرّدت عائلات بكاملها، ضرب الجيش الإسرائيلي من خلال هذا القصف بالمواثيق الدولية عرض الحائط، وانتهكها أمام مرأى ومسمع من العالم بأسره، فاستهدف المدنيين العزل والصحافيين وطواقم المسعفين، استُشِهدَ خلال هذا القصف أطفال ونساء ومسنين، القصف أدى أيضاً إلى تدمير مئات المنازل في مشهد دمار وخراب يعجز أبرع مخرجي "هوليود" عن صياغة مشهداً يحاكيه، ونزحت مئات العائلات الفلسطينية من الحي إلى مستشفى "الشفاء" وسط غزة.

القصف يتواصل وقذائف المدفعية الإسرائيلية المتمركزة في شرق الشجاعية تسببت في تدمير عشرات المنازل على رؤوس ساكنيها بعدما انهالت عليهم بشكل عشوائي وهمجي، ورغم القصف المتواصل والعزل لقطاع غزة بأكمله إلا أن أهل مكة أدرى بشعابها، فاستطاع الشباب من كل مكان وكنت منهم الوصول إلى أماكن القصف في محاولة بائسة إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

المشهد عبثي ولا يمت للإنسانية بأي صلة، قتلى وجرحى وأشلاء في كل مكان ودخان يتصاعد وجثث تحت الأنقاض، ومنازل تحترق وجيش الاحتلال يواصل قصفه الهمجي.

المشاهد التي بثت على القنوات جعلت الجميع يشجب ويستنكر ويحتج، مما دفع الصليب الأحمر إلى التوصل لهدنة مدتها ساعتين، الغاية منها إجلاء الجثث من الحي، وافق جيش الاحتلال على الهدنة التي بدأت الساعة الواحدة والنصف ظهراً بالتوقيت المحلي.

كان الدمار هائلاً وقد وضحت أبعاده عندما بدأت الهدنة، بيوت كاملة هدمت لا تعلم إن كان تحتها جثث أم لا؟

أشلاء في كل الشوارع، وبعد أقل من ساعة على الاتفاق استأنف جيش الاحتلال قصف الحي مدعياً بأن قواته تعرضت لإطلاق نار.

الجميع أيقن أن لا مفر إلا الهروب، خرج الجميع محاولاً أن يلوذ بالفرار تاركاً كل شيء خلفه، القذائف تنهال وبقوة وكثرة فوق رؤوسنا.

الحي أصبح حقيقة وليس مجازاً منطقة منكوبة من كثرة القذائف، كثفت إسرائيل القصف ورفضت كل مطالب اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالتدخل، ولم تسمح لها أو لطواقم الإسعاف بدخول الحي،

الجميع يناشد ولكن جيش الاحتلال لا يستجيب لأحد، وكأنه قرر أن يبيد هذا الحي تحت مرأى ومسمع من العالم، كان يوماً عصيباً علي حي الشجاعية، توالي فيه سقوط الشهداء والجرحي لا تعرف متى يقف العد لشهداء حي عاجز عن الصدّ، قلوب الآلاف الجرحي بلغت الحناجر وعشرات الشهداء لم يحظوا بتكريم وهدوء المقابر،

قصف عشوائي لم يبقِ ولم يذر، أجهز علي الحجر والشجر، أعاد إلى الأذهان صور ومشاهد مجازر اللد ودير ياسين وصبرا وشاتيلا و.....،
المشهد يتكرر وكأنها دراما سينمائية يعاد إخراجها من جديد لكن مع اختلاف الأزمنة واختلاف الأسماء للأشخاص، لكن يبقى القاتل هو ذاته والضحية هو نفسه.
خرج الجميع من بيوتهم وفرّوا كاللاجئين، هرعوا هم وأطفالهم وأبناؤهم وزوجاتهم في الشوارع، والقذائف تنهال على رؤوسهم في كل مكان،
تركوا كل شيء خلفهم، صدقني ما حدث كان مجزرة تفوق العقل ولا يمكن وصفها.
انتهى اليوم ولم ينتهِ القصف المتواصل، ولكنّ الحيَّ أصبح شبه فارغٍ من السكان، ساعدنا أهل الحي بكل ما أوتينا من قوة، ولكن القصف لم يتوقف وأصبح سجالاً بين من يدعون أنهم مقاومة وبين جيش الاحتلال مع الوضع في الحسبان فارق الإمكانيات الهائل، واستهداف جيش الاحتلال المدني قبل المقاوم.
صدقني لو حدثت هذه المشاهد في مكان آخر غير فلسطين لظلوا يتحدثون عنها أعواماً متتالية، ولكن لأننا في فلسطين وهذه ليست المجزرة الأولى ولن تكون الأخيرة.
فهكذا اعتدنا أن تكون أيامنا وحياتنا لذا أنا لم أكن مبالغاً عندما أخبرتك أن المال قد يفيدك في دولة أخرى إلا فلسطين.

انتهى اليوم الأول للقصف، وعاد من جاء للمساعدة ومنهم أنا إلى أعمالهم وحياتهم وسعيهم توفير قوت يومهم، ولأن المصائب لا تأتي فرادى والظالم لن يتوقف عن ظلمه إذا لم يجد من يتصدى له بل سيتمادى، فلم يكتفِ جيش الاحتلال بهذة المجزرة التي كان لابد أن يحاكم فيها قادته، ولكنه ظالم يمتلك من البجاحة والتكبر والتغطرس، ما يفوق الوصف فها هو يلاحق من جاؤوا ليساعدوا إخوانهم المدنيين العزل، ويبدو أنني تم رصد مكالمة لي مع أخي وأنا داخل هذا الحي وهذا ما جعلهم يقررون اعتقالي وهذه هي التهمة الموجهة لي.

وبعد مرور ما يقارب الشهر ونصف داخل جدران السجن تم ممارسة كل الانتهاكات بي والتي لا ترتقي للذكر، مررتُ خلالها بالعديد من مراحل التعذيب النفسي والجسدي ولا عجب، فماذا تنتظر من جيش يقوم بمجزرة مثل مجزرة حي الشجاعية؟!!

وعندما لم يفلح المحققون في التوصل إلى شيء يدينني باستثناء المساعدة قاموا بنقلي إلى الاعتقال الإداري.

فسألته مندهشاً: ما هو الاعتقال الإداري هذا؟!!

ألم تقل أنّهم في مراحل التحقيق لم يجدوا لك تهمة؟

فابتسم ساخراً وقال: نعم لم يجدوا لي تهمة لذا تم تحويلي إلى المعتقل الإداري، والاعتقال الإداري هذا يعني أن المعتقل هو معتقل بلا تهمة، أطلق عليها ما شئت غطرسة، تجبر، تعنت، افتراء...

سمها ماشئت ولكن هذا هو الاعتقال الإداري، وهو الأسوأ؛ لأنك لا تعرف فيه كم المدة التي ستقضيها داخله!!

وتطلق إسرائيل على هذا النوع من المعتقلين "أصحاب ملفات سرية"، مدته من شهرين إلى ستة أشهر قابلة للتجديد، وقد يفرج عن المعتقل روتينياً ويعاد اعتقاله من على بوابة السجن.

وهذا يعني أنك لا تعلم كم من الوقت سوف تقضي هنا،

مراحل التحقيق والمعاملة في الإداري لا تختلف كثيراً عن السجون الباقية فهنا أيضاً كافة وسائل التعذيب والإذلال،

في أحد الأيام طفح الكيل ونفد صبري، وقمت بتوجيه السب للجندي الإسرائيلي بعد أن سبني بأمي، تطور النقاش الحاد إلى أنني قمت بلكمه بكلتا يدي فقد كانت القيود في يدي ولكنّ يدي أمامي، مما تسبب في جرح بسيط في وجهه كانت هذه اللكمة هي نقطة انعطافي نحو الهاوية.

فبعد ما يقارب الساعة من الضرب والسب من أكثر من خمسة أفراد من الجنود والصعق بالكهرباء في جسدي تم نقلي إلى العزل الانفرادي وهذا يعني أنها رحلة أخرى من جحيم إلى جحيم آخر أشد قسوة.

فقد تم الزج بي في زنزانة ضيقة، غيّبت عني الزمان والمكان وعد الأيام، يطلقون على هذه الزنازين "مربعات الموت البطيء" وهي غرفة صغيرة بمساحة متر ونصف، تغلق بباب حديديّ في أسفله شبك لإدخال الطعام، ويتم إدخال الطعام في مواعيد مختلفة...

تناوب المحققون عليّ كلٌّ منهم له طريقته في الإذلال، وخلال العزل كان يتم نقلنا بين أماكن مختلفة كلها من الجحيم إلى الجحيم.

وفي أحد الأيام تدهورت حالتي الصحية حتى كدت أن أموت، وكان لابد من نقلي إلى مستشفى، فتم نقلي في سيارة مجهزة للعذاب ليس إلا، تسمى "الواسطة" هي عبارة عن قبر متحرك، جميلة من الخارج ولكنها تشبه القبر من الداخل، وتدخل المياه من سقفها في أيام الشتاء، تتجاوز رحلتها الثماني ساعات ويظل فيها الأسير مقيداً على كرسي حديديّ محروماً من الطعام، وهذه السيارة تستعمل لنقل الأسرى بين السجون والمحاكم والمستشفيات الطبية، ولا تصدق أن داخل المستشفيات هناك أدني أهتمام بالأسير كل هذا كذب وهراء الحقيقة هي الإهمال الطبي بكل معاني الكلمة الذي قد يودي بحياتك ولا ضير عندهم،وعلاج كل الأمراض فقط بالمسكنات،

بعدها عدت إلى الاعتقال الإداري، لم يترك جيش الاحتلال وسيلة لقمعي إلا وفعلها حالي حال جميع الأسرى، على سبيل المثال لا الحصر ما تفعله وحدات المتسادا واليماز والنحشون في اقتحام السجون....

أربع وعشرون سجناً ومركز توقيف إسرائيلي لا تصلح للعيش الآدمي، يتعرض المعتقلون فيها للكثير من الانتهاكات والحرمان من أبسط الحقوق وهي الزيارات، فبعد معاناة أهل الأسير في استصدار تصريح زيارة من الصليب الأحمر ولابد أن يكون الزائر قريب من الدرجة الأولى،

قد يتم منعهم بسبب الرفض الأمني، وإنْ حالفهم الحظ وحصلوا على التصريح وبعد الاستيقاظ المبكر والتفتيش على عشرات الحواجز يصل الأهالي إلى حائط زجاجي يرون من ورائه ذويهم من الأسرى ويسمعون أصواتهم عبر الهاتف في زيارة لا تتجاوز مدتها خمساً وأربعين دقيقة، وقد تُلغى الزيارة عند الخطوة الأخيرة بأي حجة ويذهب مجهود أهل الأسير سدىً، ويظل الأمل عالقاً بداخله يعينه على تحمل الأذى النفسي والجسدي في انتظار الزيارة القادمة.

مرّ ما يزيد عن عامين ونصف داخل جدران المعتقل كان العام الواحد فيهم كفيلاً بأن يخرج الشاب العشريني عجوزاً شابَ شعره وانحنى ظهره.

يوم الإفراج خرجت من بوابة السجن ظناً مني أني تركت الجحيم خلفي وقد كنت مخطئاً، فعندما وصلت إلى المنطقة التي أسكنها وجدت الرائحة غير الرائحة والمعالم ليست المعالم وأناس غير الذين تركتهم!!!!

ظللت أبحث كالمجنون أين درانا وأين أهلي؟!

رآني أحد أفراد الحي، حاول تهدئة روعي، وأخبرني أن الحيّ دخل الاستيطان وأصبحت المنطقة مملوكة إجباراً للمستوطنين اليهود، وأن أهلي الآن يسكنون في منطقة أخرى قريبة هم والكثير من سكان الحي.

كلماته كانت كالصاعقة في مسامعي وشعرت بغليان في رأسي لكن ماذا أفعل؟!

ما باليد حيلة، وهذه ليست المرة الأولى التي يتم فيها تجريف الأراضي وإجبار الفلسطينيين على ترك بيوتهم وتحويلها إلى مستوطنات، هكذا يفعل أي محتل في العالم.

وصلت إلى المكان الذي أخبرني به صديقي وجدت أبي القعيد وأمي المسنة وأخواتي الفتيات في حالة يرثى لها، ما حدث هو كارثة بالفعل وقبل أن أستفيق من هول الصدمة هذه أخبرتني أمي بما هو أشد قسوة فقد استشهد أخي إسماعيل في أحد مراحل التحقيق وأطفاله أتوا للعيش عندنا، تثاقلت أطراف جسدي، لم أدرِ ماذا أفعل؟

ولا ماذا أقول؟

كيف سيعيش كل هؤلاء في هذا المكان الضيق؟!!

ومن أين سأحصل على ما يسدّ جوعهم؟!

فحتى سيارتي قاموا بتحطيمها بأحد اللوادر أثناء التجريف كما أخبروني.

يا اااااااالله ماذا أفعل؟!!

وقفت حائراً لا أدري ماذا أفعل ولا أعي ما يقولونه؟!

ضاقت بي الأرض ذرعاً ولا إرادياً وجدتني أفكر في محبوبتي، فهي الباب الوحيد الذي ما لجأت إليه يوماً بعد الله وخذلني، أنا في أمسّ الحاجة إلى الحديث معها كما أنني أشتاق إليها حد الموت، تحركت خطوات متباطئة باتجاه الخارج قاصداً إياها، تبعتني أختي التي تصغرني يبدو أنها أحست بما

نويته، حاولت أن تمنعني، كلماتها كانت مبهمة وخفية لم أستطع فهم ما تقصده وما غايتها من منعي؟!!

فطلبت منها أن توضح لي ما تريد؟

فطعنتني بسهم به سم زعاف عندما أخبرتني أنها تزوجت منذ عام تقريباً.

جلست مكاني وقد اسودت الدنيا في عينيّ لا أعلم ماذا حدث ولا ماذا أفعل؟

السهام تتوالى في جسدي وتوسع ذلك الجرح الغائر، تُرى كم من السهام سيصمد أمامها قلبي؟!!

أعتقد أن زواج محبوبتي كان السهم الأشد قسوة فقد أرداني قتيلاً أو إن شئت فقل جعلني جسداً بلا روح ولا قلب.

في البداية كنت ألعن الحب ومحبوبتي واتهمتها بأنها خانتني وباعتني وتخلت عني، ولكن بعد أن هدأت ووضحت الرؤية في عيني وجدت أنها محقة، فحتى لو صبرت ولم تتزوج وانتظرتني فماذا أنا فاعل؟!

أين سأجد لها داراً للزواج؟

أيعقل أن أتزوجها هنا في المخيم؟!!

وكم من الوقت سأحتاج لتدبير مصاريف الزواج؟!

أعتقد أنها محقة وأنّ ما فعلته هو الصواب.

حاولت التأقلم على حياتي هذه ولكن ضيق الحال وكثرة المسؤولية وثقلها جعلت الدنيا تضيق بي ذرعاً، ولم أجد أفضل من الهروب من هذا المكان الذي لطالما أحببته كثيراً وتمنيت ألّا أفارقه لحظة واحدة،

بحثت كثيراً عن فرصة خروج من فلسطين وهو ما كان شبه مستحيل لكوني كنت معتقلاً، فهذه قوانين جيش الاحتلال.

وبعد معاناة استطاع فاعلو خير ولهم علاقات التوصل إلى حل لخروجي، وأن يتم كل شيء تحت مرأى ومسمع ورصد من جيش الاحتلال، وتحديد حتى المبالغ الشهرية التي أرسلها إلى أهلي حتى وإن كانت أقل من المطلوب، بعض الأحيان عندما يكونون في أمسّ الحاجة إلى مال أكثر من المسموح به، أترجى أحداً هنا أن يحول باسمه إلى اسم أي صديق لي هناك ومن ثم يوصلها إلى أهلي، هذه هي حكايتي وهكذا هو حال الفلسطيني اليومي اعتقال وقتل وانتهاك لحقوقه واستيلاء على ممتلكاته، وما حدث في الشجاعية يحدث كل يوم ولكن بطرق مختلفة، لا يمر يوم إلا وهناك شهيد ومعتقل قد ترصده الكاميرات وقد يبقى في طي النسيان، وصمت...

نظرت في عينيه فوجدت دموعه تنهمر، لم أدرِ ماذا أفعل غير أنني احتضنته بقوة، فقد وجدت نفسي مجبراً مثله على الصمت فماذا سأقول له وأنا على يقين أن كل كلمات الدنيا لن تخفف حجم الألم الذي يعانيه.

حاولت التقرب منه أكثر فأكثر، ومنذ تلك اللحظة وقد توليت أمر تحويل المبالغ التي يريدها إلى أهله، حاولت بشتى الطرق مساعدته مهما كلفني

الأمر، فأمه هي أمي ووالده هو والدي وإخوته هم إخوتي كلنا عرب ومسلمين، حاولت إعانته ومساعدته قدر المستطاع تنفيذاً وتصديقاً لقول رسول ربي: "كان الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"

ومنذ تلك اللحظة وأصبح حذيفة هو أخي الذي لم تلده أمي، هو أيضاً شعرت براحة منه لي وأن الله قد قذف حبي في قلبه؛ فأصبح يحكي لي عن كل شيء وأي شيء، ورغم أني لم أكن أمتلك ما يريح صدره كلياً إلا أنني كنت أسعى جاهداً لذلك حتى لو بكلمات طيبة "فالكلمة الطيبة صدقة".

-مرت الأيام والتحمت ببعضها، لم يتغيّر شيء، حنين إلى الوطن يزداد مع كل دقيقة وعمل رغم أنه روتيني ومتكرر ولا جديد فيه إلا أنه كان يساعدنا كثيراً في تخفيف حدة الاشتياق للوطن، وكالعادة في السكن الذي نقطن فيه تتعالى أصواتنا بالضحكات المزيفة ومحمود كعادته غارق بين أوراقه، غير أن سعد هذه الأيام أشعر وكأن شيئاً ما يشغل تفكيره، فرغم أنه لازال يشاركنا سمرنا وتتعالى أصواته معنا بالضحكات كعادته ولكني على يقين أنه ليس بخير، هاتفه أغلقه منذ عدة أيام، وجهه عابث، أصبح لا يهتم بالعمل فهذا الأسبوع لم يحضر سوى يومين فقط، ويبدو أن الأمر متعلق بأهله، ما أكد لي هذا أنه عندما أغلق هاتفه لعدة أيام، استطاع أخوه التواصل مع محمود على أحد وسائل التواصل الاجتماعي، وطالبه أن يطلب من سعد الاتصال بوالده لأمر هام، ولكني اندهشت من رد سعد عندما قال لمحمود، أغلق في وجوههم ولا ترد علي أحد.

حاولنا معرفة ما به ولكنه متعنت وماكر.

وفي أحد الأيام كنا في العمل ولكن سعد لم يأتِ أيضاً، وقبل الظهر بقليل وجدت محمود يتحدث في الهاتف، لم أعِره اهتماماً ربما يحادث أحد أقاربه، ولكن صوته العالي الذي يدل على أنه متوتر كان يجبرني أن أنظر إليه من وقت لآخر، بعد دقائق اقترب مني وسألني بحدة:

- هل لديك رصيد في هاتفك؟

- فقلت: نعم.

- قال: أعطني هاتفك.

أعطيته إياه سجل رقماً واتصل به، حاولت الابتعاد عنه حتى لا يشعر أني أتلصص عليه، ولكن علو صوته وانفعالاته وحركة يديه ووجهه الذي أصبح وكأنه جمرة نار، دفعني مجبراً ولست مخيراً أن أنظر إليه فأنا على يقين أن هناك أمر كارثي يحدث الآن.

بعد محادثة طويلة تخطت العشرون دقيقة اقترب مني محمود أعطاني هاتفي وقال: هيا بنا.

- فقلت: إلى أين؟

- فقال: هيا بنا إلى الشقة.

- فسألته: ما الأمر انتظر حتى ننهي عملنا؟

فلعن العمل وقال: هيا بنا أريدك معي.

استغربت طريقة محمود في الحديث فما عهدته هكذا من قبل منفعلاً غاضباً، جل معرفتي به هي الهدوء ولكني لم أرد أن تسوء الأمور أكثر فقلت:

- هيا بنا ولكن أخبرني ما الأمر؟!

- فقال: عندما نصل سوف تفهم كل شيء، واستأذن من المشرف على العمل، وانصرفنا.

طوال الطريق وهو صامت لم يتكلم ولكني أشعر بحجم النار التي بداخله، أتمنى أن أفهم ما يدور حولي ولكني آثرت الصمت.

وصلنا إلى الشقة، دخلنا، وأغلق الباب وراءه بقوة، وجدنا سعد يجلس في الصالة لم أنتبه إلا على لكمة قوية من محمود على وجه سعد، انتفض سعد من مكانه ورغم أني لا أفهم ما يجري إلا أنني ولا إرادياً وجدتني أقف حائلاً بينهم مع أسئلة تتكرر مني ولا تتوقف لكليهما أحاول فهم ما يدور؟!!

فقال سعد: أنا لا أفهم مثلك، وحفاظاً على ما كان بيننا لن أرد عليه لكمته مع استطاعتي أن أجعل قبره تحت قدميه الآن.

هنا رد محمود بتهكم: وهل أنت ممن يراعون العشرة ويأتمرون بأوامر الله؟!!

قالها والغضب والشر يتطايران من عينيه، فحاولت تهدئة محمود وسألته: أخبرني ماذا حدث كي نحل الأمر لا أن نعقده؟

فقال: اسأل هذا الأحمق الذي تسبب في خراب بيت وتشريد أسرة كاملة.

حتى بكلمات محمود هذه لم أفهم ولكن سعد قال:

- آاااااه الآن فهمت إذاً فقد أخبرك أبي بما حدث.

- فقال محمود: نعم أخبرني أيها الشيطان الأحمق.

- فقال سعد: وماذا أخبرك؟

- فقال محمود: هو لم يخبرني إلا بما أخبرته به تلك الفتاة التي تسببت في خراب حياتها وهي الآن تبكي لأجل طفلها ذلك الطفل الذي أخذه منها طليقها عنوة لأنه رأى محادثاتك ورسائلك معها، ألم تخبرها بأنك تحبها وتريدها لك وطلبت منها أن تتطلق لتتزوجها ها هي الآن مطلقة لمَ لا توفي بوعدك لها؟

فابتسم سعد ساخراً وقال: أولاً أريدك أن تهدأ فالأمر لا يحتاج كل هذا الغضب فهي ليست إحدى أقاربك..

هنا قاطعه محمود قائلاً بغضب:

- الأمر لا يحتاج إلى قرابة أيها الشيطان، كل ما أريده منك فقط أن توفي بوعدك لها.

- فقال سعد مستهزئاً: على رسلك يا صديقي أي وعد هذا الذي تريدني أن أوفي به؟!

هل تريدني أن أتزوج امرأة خائنة لزوجها، كانت تحادثني فجراً وهو نائم بجوارها منهك من تعب العمل في النهار ليوفر لها قوت يومها ويضمن لها حياة كريمة؟!

- فسأله محمود مستغرباً: إذاً لماذا وعدتها وساعدتها على خراب بيتها؟

- فقال سعد: حقاً أستغرب أمرك يا صديقي لازلت مصمماً أنه وعد، وهل للثمل وعد؟! نعم أنا كنت ثملاً حينها، وهي كانت راضية عن محادثتي ولو لم أحادثها أنا لحادثت غيري، لمَ تظن أن النساء أوفياء بهذا القدر وأننا ذئاب؟!

حسناً دعنا نتفق أننا ذئاب وأنا شيطان كما تناديني لكن ماذا لو، ماذا لو أغلقت محادثتي هل كنت أستطيع الوصول إليها؟!

هل لو لم تعطِني هاتفها كنت سأحادثها؟!

هل لو لم تعطِني فرصة للكلام والتغزل بها كنت سأطلب منها أن أتزوجها؟!

صدقني يا صديقي لو استطعت بطريقة ما كشف المحادثات الليلية التي تجري وسمحت لك وسائل التواصل الاجتماعي بهذا لوجدت العجب العجاب، ولرأيت مثل قصتي هذه ملايين القصص، فقط هم سيئوا الحظ من تنكشف محادثاتهم، صدقني الجميع يخون لكن فقط من ينكشفون هم من يحملون اللقب، أما إذا كنت تريد مني أن أوفي بوعدي لها فاقترب لأخبرك سراً، هذا العهد لا أذكر كم مرة قطعته من كثرته ولا لكم عدد من الفتيات، هي دائرة يا عزيزي تدور في مواقع التواصل، الكل هنا يظهر على حقيقته في حفلة تنكرية ولكن مالا تعرفه أن الكل في هذه الحفلة يظهر بحقيقته، فمن وجدت نفسها مجبرة على الحياء في محيط مجتمعها هنا تستطيع أن تفتح لك أبوابها دون خوف أو حياء، وهذا لا يعني أن كل النساء هكذا، بالطبع لا، فهناك منهم من تمتلك الحياء في المجتمع وفي

وسائل التواصل وهؤلاء قلة، وبالمناسبة لا تجد منهم فرصة للتودد والتقرب إليهم، فلماذا تريدني أن أحاسب على فاتورة مشروب هي من أرادته؟!!

لماذا تظن أنني أنا من أسقيتها هذا الكأس رغماً عنها؟!! فقط كن على يقين أنني لو لم أحادثها لحادثت غيري، وأنه لولا سوء حظها وأن زوجها علم بمحادثاتنا لاستمر الوضع هكذا لسنوات طوال، وصمت..

ويبدو أن كلمات سعد أصابت محمود بالصدمة كما أصابتني فقال لسعد بصوت منخفض وأقل حدة:

-إذا كان ما تقوله حقيقة وهي سيئة فما ذنب الطفل؟

وكيف ستكون حياته؟!

نظر سعد إليه وابتسم ابتسامة ساخرة وقال:

-وماذا سيحدث له؟!

لا شيء سيكبر لأب وأم مطلقين يقضي حياته بين أمه وأبيه لن يشعر بالحنان إلا للحظات قليلة، وسيكون سيئ الحظ أن تزوجت أمه من رجل آخر مثل أمي، حينها لن يجد راحة مع زوج أمه ولا من زوجة أبيه، وهكذا ستمر أيامه إلى أن يكبر وهو منهك وبحاجة إلى أقل شيء من الاحتواء والأمان، سوف يشعر أنه تائه محروم من كل شيء وفاقد كل شيء،

وعندما يصبح شاباً في ريعان شبابه سيسقط في غرام فتاة سوف يحبها بكل ما أوتي من قوة ليس لجمالها ولا لوفائها، ولكن لأنه بحاجة ماسة إلى أن يشعر أن أحدهم يحتويه ويحبه، سوف يرسم على جبينها كل أحلامه،

وسيعلق على دفء صوتها كل طموحاته، ومع القليل من الكلام المعسول الذي يطرب سمعه من فاتنته سيجد نفسه متعلقاً بها حد الموت، سوف يجدها أمه وأخته وصديقته وحبيبته وابنته ودواءه وشمسه وقمره، حتى أنه سوف ينسى الدنيا لأجلها، سوف يظن أنها ملاك بين البشر، سوف تقف حياته عند قدميها، سوف يصدق كل وعودها بأنها ستبقى بجواره إلى الأبد، وبعد أن يحط بكل رحاله في محرابها، سوف تتركه وتتزوج غيره تحت أي عذر وأي مسمى، أو يكتشف بمحض المصادفة أنها خائنة تماماً كما حدث معي، وصدقني "كل الأعذار كاذبة، من يريد يستطيع"،

سوف يحزن فترة ويظن أن حياته انتهت، وأن كل الأمور تميل إلى الأسود القاتم حتى لو كانت ناصعة البياض، بعدها سوف يستفيق وهو مشحون بطاقة هائلة من كرهه للنساء، ولأنه تم خداعه في الواقع سوف يهرع إلى باب ضال هو باب وسائل التواصل حيث الحفلة التنكرية والأقنعة المزيفة، هنا حيث الجميع أوفياء والجميع رجال والجميع مظلومين ومجروحين،

هنا حيث المسرح الذي يتقن فيه الجميع دور البراءة، وتسمع وتقرأ فيه عن الوفاء، أما الخيانة فلن تجد شجاعاً واحداً يتحدث عن خيانته، هنا سيجد ضالته ويرتدي القناع الملائكي ويبدأ في البحث، سيبحث ويبحث إلى أن يجد فتاة تفتح له أبوابها ويتسبب في خراب بيتها وتشريدها، ولكن فرحته سوف تكتمل إذا كان لها ابناً وتسبب في أن يذيقه ما حدث له..

هكذا تسير الأمور بكل بساطة يا صديقي، ولا داعي لكل هذا الغضب الذي أتيت محملاً به، وصمت..

كلمات سعد إن كانت صحيحة أو خاطئة هذا لا يهم، ولكنها أصابتني بحالة من الشلل التام، حتى أن محمود لم يتحدث بعدها، فقد تركنا ودخل غرفته بعد أن قال لسعد: صدقني أنت مريض نفسي بحاجة إلى علاج.

وقفت صامتاً لا أدري ماذا أقول، قطع صمتي سعد عندما سألني مستهزئاً:

- هل لديك أنت الآخر نصيحة توجهها لي؟!

- فقلت له: لا، ليس لدي نصائح ولكن أريد أن أسألك سؤالاً؟

- فقال: سل.

- فقلت له: حتى وإن كان ما قُلته صحيحاً، ما ذنب الطفل؟ لماذا تريده أن يتذوق هذا الكأس مثلك رغم أنك تعرف مرارة طعمه!!

فابتسم ساخراً بعد أن ضرب كفاً على كفٍ وقال:

- يبدو أنك من أولئك البشر الذين يصدقون الكلام المزيف وأن فاقد الشيء يعطيه!!!

فاقد الشيء لا يمكن أبداً أن يعطيه، فمن عاش الويلات والذل والهوان والخداع يريد للجميع أن يتذوقه مثله، خاصة إذا لم يجد من يحنو عليه، فأكثر ما يؤلم الضحية ليس قسوة الجلاد ولا وحشيته بل صمت المتفرجين، عندها سوف تشعر أن لا أحد يهتم بك ولا بما تعانيه، وستتولد لديك رغبة ملحة ومتوحشة أن تراهم يتعذبون مثلما تعذبت ويعانون

مثلما عانيت، دعني أخبرك سراً حتى وإن أغضبك، "نحن نعيش أسوأ عصر في التاريخ ووسط أقذر مجموعة بشرية وجدت على الإطلاق، هذه حقيقة وليس مجازاً،

لذا حاول أن تتوقف عن النقاش معي بخصوص هذا الأمر فهو لن يغير شيئاً مما في داخلي، ولتطمئن أكثر هناك المئات بل الآلاف مثلي ولكننا لسنا الجلادين، فنحن لا نجبر أحداً على المضي قدماً وراءنا، نحن فقط ندخل الغرف مفتوحة الأبواب، وصمت.

أخرستني كلمات سعد، ولم أجد رداً واحداً عليه غير أنني تركته ودخلت غرفتي وكل ما يشغل بالي سؤال واحد أإلى هذا الحد أصبحنا بلا نخوة ولا كرامة ولا شرف؟!!!

حقيقة لا أدري هل ألقى باللوم على سعد الذي لم يحترم رجولته وكرامته؟

أم ألقي باللوم على الفتاة التي لم تتقِ الله في شرفها ولا في زوجها ولم تكتفي بخيانة زوجها فقط بل خانت اسم أبيها الذي أفنى حياته من أجلها وخانت أخيها؟

جلست على سريري أتقلب بين أفكار عقلي، تارة ألوم سعد وتارة ألوم الفتاة وتارة ألوم المجتمع الأحمق الذي فتح الباب على مصراعيه للجميع تحت مسمى جديد اسمه الحرية؟!

ولكن في نهاية المطاف ألقيت بثقل اللوم على الفتاة، فحتى وإن كان سعد شيطاناً فلا يمكنه التسلل إليها إلا إذا فتحت له الطريق، وهذا ليس لأننا

في مجتمع ذكوري كما صبوا على آذانكم، بل الحقيقة أن هذا المجتمع الذكوري المتخلف كما تدعي أختاه قال بأن الرجل إذا خان زوجته يرجم حتى الموت، وإذا تزوج عليك مرة ثانية ولم يعدل بينكم يحشر يوم القيامة وشقه مائل، وإذا كتب لك مهراً ولم يعطيكي إياه فهو سارق، وإذا طلقك فلا يجوز له أن ياخذ منك شيء أعطاك إياه، وإذا أكل حقك من الميراث فقد تعدى حدود الله ومن يتعد حدود الله فهو ظالم لنفسه.

هذا المجتمع الذكوري أخبرنا بأنه لا يهينك إلا لئيم ولا يكرمك إلا كريم، في هذا المجتمع الذكوري الذكر هو المسؤول عن طعامك وشرابك وملبسك ومسكنك، في هذا المجتمع الذكوري يموت الذكر دفاعاً عنك وعن شرفك ويكون شهيداً، ولأجلك خاض النبي حرباً ضد بني قينقاع، وبسببك حرك المعتصم جيشه إلى عموريه، وحفاظاً على سمعتك وضع الله حد القذف ثمانين جلده، كل هذا وتتهمين المجتمع بالذكوري؟!

وترضى لنفسك الدنية تحت اسم مزيف ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب اسمه الحرية بل أنه في الحقيقة الرخص والدنيئة، أنا لا أتحدث إليك بصفتي عالم دين ولا حتى راهب في دير، الأمر لا يتعلق بالدين، فنخوة الشرف كانت موجود في الجاهلية حتى أن الرجل منهم كان يقتل حصان وطئته زوجته كيلا يركب مكانها رجل آخر.

أفيقي أختاه، أعلم أن الأمر قد يبدو لكي تسليه في هذا العالم الأزرق الافتراضي وغيره من وسائل التواصل لكن من تتهاون في هذا تتهاون في

ذاك، وعقد العفة ينفرط بكلمة، والاختلاط الالكتروني لا يختلف عن الواقع في شيء، يبدأ الأمر بالسلام، ثم الكلام ثم العشق والغرام ثم تعم البلوى ويحدث ما لا يحمد عقباه، وزمام الأمر كله بين يديك أختاه، فالزنا الالكتروني لا يختلف كثيراً عن الواقع، ففي كلاهما تهتك الأعراض وتطلق النساء ويشرد الأطفال ويحل علينا غضب الرب المتعال.

لا تدعيهم يلوثون سمعك بأن الحرية والتقدم في العري، صدقيني حينها ستكون الأنعام أكثر تحضراً ورقياً، لا تدعيهم يخبروك أن الرجال ذئاب يريدون افتراسك، فأنت خلقت من ضلع الرجل لتكوني في حماه لا أن يفترسك، لا تبيعي نفسك وعزتك وكرامتك بمقابل رخيص اسمه الحبّ يتفننون في صياغة أسماء وصور كثيرة له، الحبّ الحقيقي يجعلك ملكة متوجة في قصر مشيد، أعلم أن الأميرات مثلك يحبون التدلل والغزل وأن يقال فيهم الشعر ليل نهار، ولكن صدقيني سيكون لهذا الشعر طعم آخر يطرب سمعك إذا سمعتيه ممن طرق بابك بالحلال رافعاً لكِ القبعة، واضعاً إياك تاج على عرش أحلامه، لا أن تسمعيه من أحمق كل غرضه أن يحصل منكِ على شيء أراده، فلا تخدعك المظاهر الفضفاضه ولا الكلمات الرنانة الجميلة المؤقتة التي تحدث خلسة بعد منتصف الليل كما يسرق اللصوص، لا تدعيهم يكبلونك وسط معتقدات كاذبة باهتة ليس لها قيمة، ومصطلحات هدامة تجعل منكِ سجينة في نفسك وحولك الكثير من تلك الكذبات التي تحاصرك وتقيدك وتجعلك تشعرين أنكِ مرصودة من ذئب،

هذه المسميات الخبيثة باسم الحرية والتبرج والعري، أنتِ فقط من يستطيع حدها ومحاربتها وصدها لأنها كاذبة ليست إلا مسميات مزيفة لا أصل لها ولا تثقي فيها، لا تكوني ضحية، تحرري وعودي إلى كونك ملكةً لا أَمَةً يريدون منها أن تباع وتشترى خلف جدران العالم الأزرق والشبكة العنكبوتية، لا تصدقي من يخبرك أنّ الرجال جميعهم ذئاب مفترسة، صدقيني هي هي نفس الأصوات التي توسوس للرجل بأنّ حواء هي ألد الأعداء.

أرادوا أن يبنوا بيننا جداراً من الخوف، لتطبق تلك المقولة الشهيرة "الممنوع مرغوب"، لا تنساقي وراء ذكرٍ أحمقٍ مثل سعد يردد دون وعي، أو فكر وبكل بجاحة أن القرآن الكريم أخبرنا أن كيدكن عظيم، أخبريه بكل هدوء أنه في نفس القرآن وفي نفس السورة ذكر الله كيد الرجال قبل كيد النساء، على لسان سيدنا يعقوب قائلاً: "يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً"، لتعلم أيها الذكر الأحمق الفرق بين كيد النساء وكيد الرجال، فكيد الرجال حقد وضغينة وكيد النساء حب، فزليخة سجنت سيدنا يوسف لأنها أحبته، أما إخوته الرجال فألقوه في جبٍ قاصدين قتله وهم أبناء نبي وإخوة نبي، وهناك ذكر أحمق آخر عندما تسأله لماذا تهاجم النساء وتستبيح أعراضهن وتعتبرهن ألد الأعداء؟!

يجيب بكل لؤم وتعنت وجهل قائلاً: إنّ حواء خُلقت من ضلع آدم وهو ضلع أعوج.

حسناً أيها الأحمق اقترب لأخبرك أمراً، خلق حواء من ضلع آدم ليس تنقصياً منها، ومبرراً لأمثالك لتعاديها وتستبيح عرضها تحت أي مسمى إنما هو ارتفاع لشأنها كي تعلم إن كنت رجلاً أنّ احتوائك لها إجباراً، وليس اختياراً، وأنّ آدم خلق من تراب لأنه سيتعامل مع الأرض، أما حواء فخلقت من ضلع أعوج وظيفته حماية القلب، ولهذا فهي خلقت من المكان الذي ستتعامل معه ومن المفترض إن كنت رجلاً أن تعاملها به، ألا وهو القلب، لا أن تستغل طيبة قلبها وتعاملها الفطري الطبيعي وضعفها أمام كلمات لينات وتضعها في شبكة قذرة نهايتها المأساة، استوصوا بحواء خيراً فهي الأم والأخت والبنت والزوجة...

لاتزرعوا حنظلاً وتنتظروا أن تجنوا ورداً.

بتُ ليلتي هذه أتقلب على سريري لا أدري أي شعور هذا الذي ينتابني؟!

كم كنت أتمنى أن تتاح لي فرصة محادثة كل فتاة في هذه الدنيا، لأخبرها أن الرجل لن يطرق بابها بالحلال إلا إذا أغلقت في وجهه جميع أبواب الحرام، وإن لم يعجبه ذلك فليرحل إلى الجحيم والخيرة فيما اختاره الله لكي، لا تدعيه يخدعك باسم الحب؛ فيطلب هاتفك ويحادثك وترسلين إليه صورك، من أحبكِ حبّاً حقيقياً سيخشى عليك ولن يرضى لكِ هذا، لا تركضي خلف مشاعر زائفة؛ فلا خير في حبٍّ يتخفى كأنّه خطيئة أو عار، أنتِ أغلى وأنقى من أن تكوني تسلية لأحدهم، لا تسمحي لأحد أن يفسد سمعتك أو يدنس صحيفتك أو يحني رأس والدك، أو يؤذي قلب أمك أو

يوغر صدر أخيك باسم الحبّ، الحبّ الحقيقي هو الحبّ الذي يجعلك تشعرين بأنك ملكة متوجة بالأفعال لا بالكلام، وتذكري مفاتيح الأمر كلها بين يديك، فقط كوني غالية.

أما سعد وأمثاله فلن أكثر من الحديث معهم والنصائح فأنا على يقين أنهم لا يملكون من الأمر شيء، وأنهم لن يدخلوا إلا الغرف المفتوحة، كما قال سعد، لذا فقط أريد أن أخبرهم أن يتقوا الله في أعراضهم قبل أعراض الناس، ولا ينسوا أن "دين الأعراض وفاؤه الأعراض"

وأن كل منهم له أخت وأم، وستكون له زوجة وبنتاً وحتماً سيأتي اليوم الذي تعاني فيه إحداهن انتقاماً منه كما فعل مع غيره، الدنيا ليست ثابتة بل هي دائرة وتدور وما تراه بعيداً اليوم غداً سيكون قريباً، كن رجلاً وإن وجدت إحداهن ضعفت لأمر ما وفتحت لك طريقاً أغلقه، وقل لها أنك تخشى الله على عرضك قبل خوفك من جحيم الله، ولتعلم أخي وأختي أنهم كما جعلوا للحبّ مسميات كثيرة، أيضاً جعلوا للعلاقات مسميات أكثر كلها زائفة وباهتة، فالعلاقة الحقيقة الثابتة والدائمة بين الرجل والمرأة هي تلك العلاقة التي تقوم على المودة والرحمة والارتياحية، فالعلاقات على كثرتها وتنوع أطرافها واختلاف مسمياتها تبقى أعلاهم شأناً وأرفعهم مقاماً، وأجملهم ذكراً وأندرهم وجوداً تلك العلاقة المريحة التي تولد في النور وترضي الناس والرب الغفور، هذه العلاقة التي يشعر فيها كل من الطرفين أنه الأجمل على الإطلاق، حيث يرى كلاهما الجمال معكوساً عليه من الطرف الآخر، هذه

العلاقة لا يتخللها أبداً جدال إلا لمعرفة، ولا عتاب إلا بحبّ، ولا هجر إلا لوصال أكثر، هذه العلاقة تخلو من المجاملات والمزايدات، ففيها تجد كلا الطرفين على طبيعته بلا تكلف، فالبساطة والعفوية هي سر القبول بينهما، فلا ترتيب لكلمات من ورائها غرض ولا تزيين لعبارات ولا خوف من سوء فهم أو ردة فعل، التلقائية المفرطة هي سيدة الموقف بين الطرفين وكلاهما حقه محفوظ في الغياب والحضور، كل منهما آمن مطمئن لا يخشى فراق ولا تهمهم مسافات، الود بينهم موصول في الصمت والكلام وفي القرب والبعد وفي العسر قبل اليسر، الحبّ بينهم يزيد مع الود ويقوى بحبل متين لا يمكن قطعه، الشوق بينهم لا يهدأ وقلوبهم من اللهفة لا تنام، هذه العلاقة هي التي تجعل المرء يتذوق طعم الأُنس، ويشعر بالراحة والهدوء والسكينة، وتراه يتفنن في خلق حديث من اللاشيء مع محبوبه، هذه العلاقة هي التي يكتمل فيها المرء بحبيبه، ولا يهدأ له بال ولا يستكين إلا بنصفه الآخر، حتى يكاد يجن من فرط حبه له، هذه العلاقة التي تقوم على الارتياح والمودة والرحمة هي العلاقة الوحيدة التي تستوجب الشكر لأنها هبة ربانية يقذفها الله في قلوب المحبين وما دون ذلك من علاقات هي عبث وأضغاث أفكار.

مرت ليلتي أتقلب فيها بين أفكار عقلي لا أدري متى غلبني نومي؟!

وفي الصباح استيقظتُ وذهبنا إلى العمل كعادتنا لم تتغير الأمور كثيراً، غير أن محمود قطع علاقته مع سعد نهائياً، حتى أنا كان كلامي معه قليل لم

أعد كالسابق أجلس معه كثيراً، فقط إذا استدعى الأمر الحديث في العمل أما في الشقة لم نعد كالسابق.

مرت الأيام هكذا وفي أحد الأيام دخل سعد عليّ غرفتي وسألني سؤال أربك كل حساباتي وأطاح بما تبقى لي من عقل، عندما سألني بسخطٍ قائلاً:

- هل تسمح للشيطان أن يتحدث معك لدقائق قليلة أيها الملاك؟!

فابتسمت وقلت له:

- أنت لست شيطاناً وأنا لست ملاكاً، ربما أنت وكل البشر أفضل مني ولكن تحدث دقائق وساعات إن أردت.

- فقال: ماذا لو تبادلنا الأدوار لدقائق، وأصبحت أنت مكاني ووجدت نفسك طفلاً لأب وأم منفصلين لم تجد راحة هنا ولا هناك، لم تجد من يخبرك بالعيب والحرام رغم كثرة الأموال التي يغدقوها فوق رأسك؟

وأنا أصبحت مكانك لأب وأم حتى وإن كانت الحياة المادية صعبة، لكن وجدت الاحتواء مثلك وعلاقة سوية بين رجل وامرأة يخبرون أولادهم أن هذا عيب وهذا حرام، وكلما سقطت وجدت أياديهم ممتدة إليك لانتشالك من سقوطك وتعيدك إلى حيث تواجد البشر والاحتواء والأمان، ترى وقتها من منا كان سيصبح شيطاناً ومَن ملاكاً؟!! وصمت...

وقفت حائراً لا أدري ماذا أقول فربما هو محق هذه المرة، ألم نتحدث عن الاحتواء مراراً وتكراراً وقلنا: "أن كل يائس حتماً سيعود إلى رشده إذا وجد من يحتويه؟"

ألم نردد "أن اليائس بحاجة إلى الاحتواء أكثر من حاجته النصح والإرشاد"؟!
ألم نقل "أن الحياة قصيرة لا مجال فيها لتعلم كل شيء عن تجربة شخصية وإنما علينا التعلم من كبار السن الذين نحبهم"؟!
لمَ لا يكون سعد ضحية عدم الاحتواء والنصح والإرشاد، ويدفع ثمن طفولة بائسة؟!
فعندما كان طفلاً كان أرضاً خصبة صالحة لزراعة كل شيء جميل، ولكنه لم يجد من يهتم به، ولم يجد من يرتب له مواسم الزرع، فبارت أرضه وأصبحت صحراء جرداء لا ينبت فيها إلا الشوك..
ووسط شرود ذهني قاطعني قائلاً:
-أتعلم....، وصمت قليلاً ثم تابع، أكبر كذبة خدعونا بها أن العائلة هي أولاً وثانياً وثالثاً وتلك الكلمات الرنانة والأداء المسرحي الهزلي، فربطوا نجاحنا بالأسرة ونسبوه لها، أما فشلنا فهو لنا وحدنا ويتناسون الأسرة، لمَ كل هذا التغطرس والظلم؟!
أليس من الحكمة" أن من يجني ثمار النجاح يتحمل أيضاً خيبات الخسارة والفشل"
صدقني لطالما كانت الأسرة هي المدمر الأول والرئيسي لكل شخص غير سوي ولكننا خجلنا أن نقول ذلك أو ربما هم من كمموا أفواهنا عن قول هذه الحقيقة، سأقول لك شيء في غاية الغرابة وأتمنى أن تفهمني وتسمعني

بقلبك لا بعقلك فقط، أتدري لماذا فعلت مع هذه الفتاة هكذا أو حتى مع غيرها؟!

-فقلت له: أخبرني لماذا.

صمت قليلا بعد أن تنهد ثم تابع قائلاً:

-كل الذين أحبوني وأحببتهم كنت أنا دائماً الطرف الأكثر حباً لهم، ربما لأنني كنت أحوج منهم إلى هذا الحبّ وهذا الاحتواء، ورغم أن قدرتي كانت ضعيفة على التعبير عن ذلك الحبّ إلا أنني كنت أقدم لهم أشياء صادقة، أشياء ربما لا يعرفون قيمتها إلا بعد نهاية علاقتنا، هم دائماً رائعون في البداية، الجميع يكون رائعاً في البدايات والأُنس والأمان والردود الطيبة..، أما أنا فكنت دائماً أبحث عن ما هو بعد هذه الخطوة، فقد كنت أبحث وأتمنى أن ألتقي بشخص لا يمل مني، شخص يجيد جبر خاطري بالكلمات والأفعال وبالأشياء البسيطة التي أحبها، ولكن كعادة حياتي تدب الحياة في المياه الراكدة فجأة ودون مقدمات، فتكون فقط البدايات رائعة في كل شيء لكن مع الوقت تبرد مشاعرهم، ومع مرور الأيام كنت أكتشف أن اقترابهم مني كان بدافع الفضول أو مجرد نوبات احتياج فتعثروا بي لأعوضهم عن الفراغات التي يشعرون بها، وما أن تسد حاجتهم حتى يرحلوا ويتركوا في جسدي سهماً آخر يواصل طريقه في توسعة جرحي الذي ينزف منذ كنت طفلاً وفتحه أبي وأمي بانفصالهما، لم يحدث يوماً ووجدت من تغير لأجلي، من حاول وضحّى ليبقى بجانبي، لم يتشبث بي أحد، لم

يشعرني أحد أنني الأهم في حياته، لم يتحملني أحد كما أتحمل أنا، دائماً ما كنت أجد نفسي الطرف الذي ينبغى عليه أن يكون حقل تجارب لهم أو محطة أو استراحة في طريق حياتهم.

كنت أشعر بالانهيار ولكن لم أجد من أستطيع الانهيار أمامه في أوقات ضعفي، لم أجد من يفكر لبعض الوقت وليس طوال الوقت في سعادتي، جميعهم كان حبهم عادياً، لا يختلف كثيراً عمّا أسمعه من قصص أو أقرأه، كان حبهم أقل من العادي حتى أمنت أني مختل عقلياً ومريض، حتى أيقنت أن الحب الذي أبحث عنه لا يخرج عن خيالي وأفكاري، ما عانيته أنا ليس فقط بداعي انفصال والديّ، ولكن أيضاً يعانيه كل طفل في أسرة غير متوافقة دائمي الخلاف والشجار وعدم التوافق، ثم صمت قليلاً وبدا على عينيه أثر الدموع الذي يسعى جاهداً لإيقافها ومنعها ولكنها ذرفت رغماً عنه، فأيقنت أن بداخله شيء جيد وصورة رائعة هو فقط بحاجة إلى بعض من الاحتواء والتقويم أكثر من النصح، غبار فقط أخفى تلك الصورة الجميلة بداخله وجعلها مشوشة، وبحاجة إلى من يزيح عنها هذا الغبار لتظهر ملامحها الجميلة.

اقتربت منه ببطءٍ واحتضنته كي يهدأ ومنذ تلك اللحظة حاولت التقرب منه والتودد إليه، مرّت الأيام وأنا ألاحظ تغييرات في تعامله، بدأ الخير بداخله ينمو ويكبر، بدأ يتقرب إلى الله أكثر شعرت حقيقة وليس مجازاً أنه أصبح إنساناً مختلفاً وقد لمست ذلك فيه، فأدركت صحة تلك المقولة أن

الإنسان يأتي عليه أوقات يكون فيها بحاجة إلى الاحتواء أكثر من حاجته إلى النصح والإرشاد، وأن الإنسان فطرته الخير وأرض صالحة لزراعة الخير إذا وجدت البذور الصالحة.

بدأ يعود ويهتم بعمله كما السابق ونتسامر ليلاً، هكذا مرت أيامنا ولم يختلف فيها الكثير، حنين إلى الوطن ليلاً وعمل نهاراً، ولكن حنين الليل لم يعد مسالماً ويأتي خفية كما السابق، بل أصبح عدوانياً يأتي مدججاً بكل أسلحة الهلاك، لا يعطيك فرصة للمقاومة، فسرعان ما يضع سهامه وخناجره وأسلحته الفتاكة في الجسد وينهش بأنيابه الحادة في قلوبنا، ولكننا تعودنا أن نخفي جروحنا في الصباح خلف ابتسامتنا التي أصبحت دائمة ومعتادة ولكنها مزيفة.

وفي أحد الأيام بعد أن انتهينا من العمل وعدنا إلى الشقة كعادتنا، عاد الجميع عدا علي، تأخر الوقت ولم يأتِ، مر الليل ولم يأتِ، ما زاد من قلقنا عليه والشعور بأن هناك أمر سيئ قد حدث أن هاتفه كان مغلقاً..

جاء الصباح، ذهبنا إلى العمل، مرت الساعات الأولى طبيعية وقبيل الظهر بقليل إذا بالشؤون القانونية في العمل يخبرونا بأن "علي" محتجز في أحد أقسام الشرطة بسبب شجار دار بينه وبين اثنين من الأشخاص، ذهبنا سريعاً أنا ومحمود وأحد أفراد الشؤون إلى ذلك المكان الذي أخبرونا بأنه محتجز فيه، وصلنا إلى هناك وبعد محاولات عديدة ووقت تخطى الخمس ساعات استطاع المندوب القانوني التوصل إلى تسوية مع من أقام معهم "علي"

النزاع، جرت الأمور بخير فيبدو أنهم أناس طيبون وأن ما حدث كان سوء فهم.

رغم عدم علمنا بما حدث حتى الآن فكل ما يهمنا هو خروج "علي" من هذا المكان وبعدها سيكون أمامنا الكثير من الوقت لفهم كل شيء، وصلنا إلى الشقة، حاولنا فهم ماحدث من علي، لكنه كان لازال غاضباً وبشدة، يتمتم بكلمات لم نفهم منها شيئاً، تركناه في غرفته كي يستريح ويهدأ، وبعد مرور أكثر من ساعتين ونصف دخلت عليه الغرفة بعد أن استأذنت بالدخول وسمح لي، حاولت بكل هدوء فهم ما حدث معه، فأخبرني أنه كان يستقل سيارة العمل كعادته، وفي إحدى إشارات المرور وجدَ امرأة سورية ومعها فتاة صغيرة تتسول في الشارع، صمت قليلاً واستطرد قائلاً:

-لا أعلم ما الذي حدث ولكن دفعني الحنين أن أنزل وأسير باتجاهها وأساعدها قدر المستطاع، دار حديث بيننا سألتها فيه عن مكان نشأتها في سوريا؟!!

فأخبرتني أنها من تدمر.

لم أكن أعرفها جيداً ولا أذكر أني يوماً قمت بزيارتها، جُلّ معرفتي بها هو سماع الأحاديث عن قسوة سجن تدمر على الطريق الصحراوي.

وهذا ما استغربته هي، وقالت: تدمر هي بلد غروبها سحر و شروقها أصالة، تدمر هي عز الحضارة، من أين أبدأ والوجع ينهش فيها من كل جانب، سأبدأ في آثارها وشارعها الطويل، بمتحف ليس له مثيل، إن عرّجت على

بساتينها فأنت في سحر الشرق الجميل، وإن دخلت دهاليز معبدها سترى ذاك السر الأصيل، هناك ستلتقي بلوحات للجمال ليس لها مثيل، في كل لوحة حكاية، وفي كل أصل بداية، لوحة تمثل العائلة التدمرية وأخرى اللباس والمزروعات التي كانت، أما عن نهر آفقا، حدّثْ ولا حرج هناك المياه الكبريتية للاستشفاء من الأمراض الجلدية وحمامات تدمر التي اقتطع منها ودخل لفندق الشام كي يعمل بها مسابح، أما أشجار النخيل فللحب فيها قضية، باسقات شامخات لا تسقى وإنما هي تروى بمطر السماء، قلعتها أجمل ما بها أنك ترى منها تدمر بكل شوارعها، وغروبها لوحة للناظر، تسبح الشمس في قلب الجبال بلونها الأرجواني الجميل فتصطبغ الآثار بذاك اللون....

وفي خضم الحديث الدائر بيننا، وبينما تتحدث معي إذا باثنين من الشباب يتحدثون بصوتٍ عالٍ سمعناه عن أن هذه عادة سيئة، وأن السوريين يسيئون لسمعة البلد، كانت كلماتهم كالصاعقة التي أصابت المرأة بالشلل في لسانها فلم تنبس ببنت شفة بعدها.

ربما يكونوا محقين في مقالتهم ولكن الألفاظ التي خرجت منهم ونعتهم المرأة بصفة الشحاتة جعلني أسمع بكاء قلبها وأنين صدرها حتى لو لم تبح به، فلن يشعر بالنار إلا من أكتوى بها، وكيف لا أشعر بما يدور داخلها وأنا أعاني مثلما تعاني؟!!

قد تكون هذه الشحاتة طبيبة أو مهندسة أو مدرسة، قد تكون تحصلت على مؤهل لن يحصلوا عليه في حياتهم، ورغم عدم علمي بحقيقة مؤهلها إلا أنني أعلم يقيناً أنها كانت أماً جيدة لأبناء لا أستبعد ولا أستغرب فكرة أن يكون لهم أصدقاء من دول عربية جاؤوا في زيارة إلى أبنائها وقامت بخدمتهم وإكرام نزلهم، لكن ماذنبها وقد وجدت نفسها مجبرة على ترك دارها التي كانت ملكة معززه ومكرمة فيها لتجد نفسها بين عشية وضحاها بين المطرقة والسندان؟!!

وكأنها كانت في حلم جميل استيقظت على كابوس لا يرحم اسمه التهجير القصري الذي طال المئات والآلاف بل إن شئت فقل الملايين، إما تهجير وغربة وذل وهوان وإما قتل تحت الأنقاض..

كل هذا دفعني لأن أغضب ويحدث الشجار بيني وبين الشباب وصمت....

حقيقة كانت كلماته بطعم الحنظل في مسامعي أصابتني بالتوتر الشديد فأنا على يقين أنه محق، وقد ظهر هذا التوتر عليَّ في كلماتي عندما حاولت تهدئته والتخفيف من روعه، فقلت له: إهدأ وحاول أن تكون متماسكاً فهي ليست أختك أو أمك إنها فقط سورية.

فاستشاط غضباً وبدا على وجهه الاحمرار الشديد وقال لي بحدة: وما الفرق بينها وبين أمي أو أختي؟!

في النهاية هي عربية وبلاد العرب أوطاني وكل العرب إخواني، وأقسم بالله ما دفعها إلى مد يدها إلا الحاجة الماسة لهذا، فلا يوجد بشر في هذا الكون

من الممكن أن يترك بيته وعزته وينزل إلى الشارع معرضاً نفسه لهذا الكم الهائل من الضغط النفسي والعصبي والذل والإهانة إلا وهو في أمسّ الاحتياج وهذا ما دفعه دفعاً لفعل ذلك، صدقني لو أنها وجدت فرصة واحدة للعيش في بلدها والله ما خرجت منها، حالها كحالي كحال كل سوري أصبح يلقب بألقاب لا تليق به مثل اللاجئ والشحات، وما شابه، ولكن كيف نعيش في بلد أصبح فيه أكثر الأحلام هو الموت بسلام، وصمت.

اعتذرت له وبررت مقولتي بأني حالي كحال الكثير من البشر نسمع فقط من حين لآخر عما يدور في سوريا لكن لا أحد منا يعرف الحقيقة الكاملة والسبب الحقيقي وراء نزوحكم.!

فابتسم ابتسامة كلها سخرية وقال:

-صدقني حتى نحن السوريون الكثير منا لا يعرف حقيقة ما حدث.

استغربت مقولته وسألته مستغرباً:

-كيف لا تعرف ما حدث في بلدك؟!!!

-فقال: سأخبرك، الأمر أشبه بكابوس فظيع وطويل نتمنى أن نستيقظ منه لننسى تلك السنوات العجاف من التشرد والظلم والقهر، فحال سوريا قبل آذار مارس **2011** كان عادياً جداً، حالنا كحال أي دولة عربية، كل منا يسعى لعمله ويدبر معيشته، ورغم القبضة الأمنية الحديدية إلا أن الأمور

كانت تسير بخير لا طوائف ولا اقتتال، وهناك الكثير من الأمان، كان الجميع يرى ويسمع عن جمال سوريا الحبيبة، لن أخفيك سراً الحياة الاقتصادية كانت في العدم ولكننا اعتدنا عليها، أيضاً كان هناك عمليات كرٍّ وفرّ بين المعارضة والنظام ولكن بالأقلام، وهذا يحدث حتى في أمريكا نفسها.

لن أحدثك عن تاريخ سوريا ما قبل مارس **2011** فشأنها شأن سائر الدول العربية كانت تعاني الاستعمار حتى استقلت واستولت مؤخراً عائلة الأسد على الحكم بعد الرئيس حافظ الأسد، جاء ابنه الدكتور الرئيس بشار الأسد، لم نكن نعرف ما يسمى بالطائفية والمذاهب كانت الأمور تسير بخير، حتى بدأ العام الحادي عشر بعد الألفين، وبدأت معه ثورات ما يسمى بالربيع العربي أو الربيع العبري، كما يحب أن يطلق عليه بعض البشر في مصر وتونس وليبيا، كنا نشاهد الأخبار ولكن أكثر المتفائلين من هذا الجانب وأشد المتشائمين من ذاك الجانب، لم يكن يخطر بباله ولو لوهلة بأن هذا السيناريو قد يحدث هنا على هذه الأرض السورية، فالقبضة الأمنية كانت تحكم بالحديد والنار حقيقة وليس مجازاً واسألوا سجن تدمر عن هذا؟!

بدأ الأمر وكأنه مسرحية هزلية وتحديداً في منطقة درعا، هذه المنطقة التي كانت شرارة الثورة وفيها ومنها كسر جدار الصمت،

بدأت الأحداث عندما كتب طلاب مدرسة تدعى الأربعين، عبارات تطالب بإسقاط النظام تأثراً بثورات الربيع العربي، منها عبارة "جاك الدور يا دكتور"، رد الأمن على ذلك باعتقال عشرين تلميذاً بتهم أكبر حتى من أعمارهم وعقولهم، خضعوا للتعذيب في معتقلات بدمشق تقشعر الأبدان لسماعها، طالب أهالي ووجهاء المنطقة الأمن بسرعة، الإفراج عن الأطفال وحددوا لهم مهلة لذلك، لم تستجِب الحكومة للمطالب وانتهت المهلة المحددة.

لتبدأ بعدها المظاهرات لتكون سابقة في بلد عرف بسطوة نظامه الأمني والمخابراتي، رد نظام الأسد الابن على المظاهرات بالاعتقالات التعسفية ولاحقاً بالرصاص، لينتقل شعار الموت ولا المذلة إلى باقي أرجاء سوريا.

بدأت المظاهرات سلمية واستمرت هكذا لشهور، ثم تحولت من سلمية إلى حرب دمرت أجمل ما في سوريا من حضارة وتاريخ وتعايش بين المذاهب والأديان، دخلت مصطلحات جديدة حياة السوريين مثل براميل متفجرة والسلاح الكيميائي وغاز الخردل وفصائل معارضة تتجاوز المئة، ومسلحون أجانب منهم من يقاتل مع النظام وآخرون في تنظيمات مسلحة.

ماذا لو كانت الدولة السورية لم تعتقل أطفال درعا، أو أطلقت سراحهم قبل انتهاء مدة الأهالي والوجهاء؟!!

لو.....لو لن تغير شيئاً فيما حدث، ولن تعيد قتيلاً واحداً من أكثر من ربع مليون قتيل، ولن تعيد مشرداً واحداً من بين ملايين المشردين.

سرعان ما سرى القتل والمواجهة المسلحة في كل أرجاء سوريا طال حتى مدينتي الهادئة حلب وريفها.

فمنذ بداية العام الثاني عشر بعد الألفين وقد استطاعت المعارضة بسط سيطرتها ونفوذها في ريف حلب، حلب تلك المدينة الجميلة التي اشتهرت بصناعة المنسوجات والصابون، وكانت المركز الاقتصادي لسوريا وكانت لها أهمية تاريخية وثقافية كبيرة، لكن من بعد سيطرة المعارضة عليها انقلبت أوضاعها رأساً على عقب.

تحولت تلك المدينة الجميلة الهادئة إلى كتلة نار، فقد رد النظام على المعارضة وسيطرتها على حلب باستهداف المناطق التى سيطرت عليها المعارضة المسلحة بالطيران والبراميل المتفجرة، وكافة أنواع الأسلحة بما فيها الغازات السامة، استمر الوضع هكذا كر وفر بين المعارضة والنظام في ريف حلب، تستولي المعارضة على منطقة في الليل وسرعان ما يستردها النظام بالنهار، قتلى وجرحى من الجانبين لكن يبقى النصيب الأكبر من القتلى للمدنيين العزل، تارة تستخدمهم المعارضة كدروع بشرية وتارة تسقط فوق رؤوسهم البراميل المتفجرة، تتوالى الأحداث ويزداد عدد الشهداء تحت الأنقاض وفي كل حدث يحدث يتم نزوح البعض من أماكنهم مجبرين لا مخيرين، فالجميع كان يتمنى أن تقف هذه المجازر من هذا الجانب أو ذاك، لن أحدثك عن الدمار الذي حل بالمقدسات ولا بالمباني الأثرية كانهيار مئذنة الجامع الأموي، ولن أحدثك عن أعداد القتلى

فحقيقة لا يعلم عددهم إلا خالقهم، جرت هكذا الأحداث خلال السنوات الثلاث الأولى، حتى جاء العام الخامس عشر بعد الألفين، حيث استطاعت فصائل المعارضة تحقيق سلسلة نجاحات وضعت الحكومة تحت ضغط، مما أجبر قوات النظام مدعومة بحلفائها تكثيف غاراتها وهجومها على ريف حلب وخاصة في المناطق الشرقية، ومع كل ساعة من ساعات النهار تحدث مجزرة ينجم عنها قتلى، ساءت الأوضاع بطريقة لا يمكن وصفها أكاد أجزم أنه لم ينجُ بيتٌ واحدٌ في حلب من وجود قتيل فيه على الأقل من جراء هذه المواجهات، وخاصة مع بداية العام السادس عشر فقد شنت القوات أعنف ضربات جوية على شرق حلب وأعلنت الحكومة هجوماً جديداً لاستعادة المدينة من المعارضة وبعد قصف مكثف استمر لأسابيع أصاب العديد من المستشفيات والبنية الأساسية المدنية.

استمر هذا الوضع لأيام لا يمكن وصفها إلا أنها كانت أياماً في الجحيم، نيران مشتعلة هنا وهناك، لا نوم ولا أمان ولا طعام، ودخان يتصاعد من كل مكان، وفي اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر أعلنت روسيا والحكومة السورية وقف حملتهما وتم حث المعارضة والمدنيين على مغادرة شرق حلب، لكن الضربات الجوية استؤنفت بشكل كامل في اليوم الخامس عشر من نوفمبر، ورغم أن هذا الإتفاق ظاهرة فيه الرحمة إلا أن باطنه العذاب، فهو يعني أنك لتؤمن على حياتك عليك بمغادرة أرضك ودارك لتنال لقب آخر اسمه "لاجئ" لا تعرف متى وكيف ستتخلص منه؟!

ولكننا كنا مجبرين عليه فلا خيار آخر حتى الصبر والتحمل، قد نفد منا بعد خمس سنوات عجاف تذوقنا خلالها الألم والحسرة والقهر والخوف، خمس سنوات كانت كفيلة أن تجعل الطفل شيباً من كثرت أحزانها وهول أحداثها، خمس سنوات مما أسموه ثورة كانت كفيلة بتحويل حلب من مدينة لاتنام إلى مدينة يملأ بيوت سكانها الحزن على ما وصلت إليه شهباؤهم، خمس سنوات مئات الضحايا بل الآلاف وملايين النازحين وأحياء مدمرة بشكل شبه كامل وحضارة نسفت من قبل ناقمين ادعوا في بداية الأمر سلمية أعمالهم، خمس سنوات كلها من الجحيم وفي الجحيم.

لن أحدثك عن أن المذنب هو النظام ولا حتى المعارضة فهذا سيذكره التاريخ وعلى يقين أن التاريخ سينصف صاحب الحق ويضع السيئ في أسوأ مزابل التاريخ، ولكن سأحدثك فقط عن شعب هو الخاسر الوحيد من كل ما حدث، فقد أرضه وعزته وكرامته ولاقى الذل والهوان، شعب دفع أبناءه ثمناً لثورة لم ولن تحقق مطالبها، نعم أقصدها لم ولن تحقق مطالبها.

ألم تكن المطالب عيشاً، حرية، عدالة اجتماعية؟!

أين العدالة في قتلى بالآلاف ومهجرين بالملايين وبنية تحتية أبيدت عن بكرة أبيها؟!

هذا الشعب هو الوحيد الذي دفع فاتورة تلك الأحداث وأصبح أكثر أمانيه هو التهجير خوفاً من الموت تحت الأنقاض، كما حدث لوالدي وإخوتي الاثنين عمر وعبد الرحمن.

فرحنا بوقف إطلاق النار وتأمين معبر لتهجيرنا، فأخذت زوجتي الحامل في شهرها الثامن وأمي المرأة المسنة، وزوجة أخي عبد الرحمن الأرملة وأبناءها الأربعة الذين لم تتجاوز أعمارهم الثانية عشر، وبدأنا نلوز بالفرار مع الآلاف، لم تكن عملية النزوح آمنة كما تخيلنا، ففيها أيضاً عانينا الويلات خاصة بعد تجدد القصف بين المعارضة والنظام، وقد استطاعت إحدى فصائل المعارضة الوصول إلينا وقطع الطريق علينا قبل الوصول إلى المعبر، أجبرونا أنا ومجموعة من الشباب على الانضمام لهم تحت تهديد السلاح، فاضطررنا للموافقة حتى يأمن النساء والأطفال مكرهم، وكانت هذه آخر مرة ألتقي فيها بأمي وزوجتي وأطفال أخي، مكثنا بينهم قرابة الشهر ونصف الشهر ما رأيناه وعانيناه وسطهم يحتاج لجيش من البلاغة كي أستطيع وصفه، ولكن صدقني لن أستطيع حتى لو استنجدت بربات الكلمة.

يكفيني أن أخبرك موقفاً واحداً حدث من بين الآلاف المواقف لم أستطع نسيانه حتى الآن ولا فهمه رغم مرور ما يقارب أربعة أعوام عليه، فقد استطاعت الفصيلة التي كنا معها أسر اثنين آخرين من فصيلة أخرى وقرروا قتلهم تنفيذاً لأوامر الله، أتوا بهما مكبلي اليدين كلاهما بلحية كبيرة كما هو حال من معنا وعند تنفيذ الإعدام كان القاتل يردد الله أكبر والمقتول ينطق الشهادة...

وقفت حائراً مندهشاً لا أعرف من منهم على حق ومن منهم سيقبله الله؟!!

بعد مرور شهر ونصف ونتيجة للقصف المكثف للطيران على معاقل المعارضة، كانت الفصيلة التي نتواجد معهم كثيرة التنقل وهذا ما سهل عملية هروبنا أنا واثنين من أصدقائي، وصلنا إلى المعبر، ومن دولة إلى أخرى حتى استقر بي المطاف هنا، ساعدني فاعلو الخير في استخراج وثيقة وإيجاد هذا العمل لي هنا وها أنا ذا، ولكن بقي الشغل الشاغل عندي ماجعل النوم يخاصم جفني هو أنني لا أعلم شيئاً عن أهلي ولا في أي دولة هم الآن؟!

بحثت وبحثت حتى ظننت أنني لن أعثر عليهم مجدداً، فقد انقطعت كل وسائل التواصل بيننا ولكن منذ عام تقريباً استطعت التوصل إليهم بعد محاولات عديدة من البحث والأسئلة، وعلمت أنهم يتواجدون الآن في مصر ولكن أول محادثة لي معهم قتلت آخر آمالي، وطعنتني بخنجر مسموم عندما علمت بوفاة أمي وأيضاً وفاة طفلي الذي انتظرته سنوات أثناء الولادة لعدم وجود رعاية طبية في المخيم حينها، وأن ابن أخي البالغ من العمر **15** عاماً هو من يقوم على رعايتهم وتحمل عبء مصاريف إخوته وأمه وزوجتي، منذ ذلك الحين وأنا أحاول مساعدتهم قدر المستطاع ولا تنتهي محاولاتي باستخراج أوراق لهم ليتمكنوا من المجيء إلى هنا، وإذا فشل الأمر سأكون أنا مضطرا للنزول إليهم.

هذا هو حال كل سوري باختلاف التفاصيل التي لو وقفت في رواية إحداها لاحتجت شهوراً وربما أعواماً.

الكل وبلا استثناء عانى ولا زال يعاني، الكل دفع فاتورة تلك الثورة من دماء أقاربه ومغادرة داره، أصبحنا من أكثر الشعوب التي تغربت ولكن غربتنا هي غربة تهجير لا بديل لها إلا الموت تحت الأنقاض، الآن هل فهمت لماذا غضبت ودار الشجار بيني وبين الشباب عندما نعتوا المرأة السورية بالشحاتة؟

وهل فهمت كلماتي عندما أخبرتك عن عدم علمي بحقيقة الأمر في سوريا حتى الآن؟

وصمت بعد أن اغرورقت عيناه بالدموع فاقتربت منه، اعتذرت له، وقبل أن أكمل كلامي وجدته يتصنع ابتسامة عريضة ويسألني مازحاً:

-أين ذلك الشاي الصعيدي الثقيل فقد اشتقت له من يدك؟

هيا بنا لنقوم بإعداده وأهزمك كالعادة في لعبة الشطرنج.

استغربت قوته ورباطة جأشه رغم ما حدثني عنه منذ قليل ولكن أحببت أن أجاريه في مزحته وقلت له: هيا بنا.

قمنا بإعداد الشاي ولعبنا وبعد منتصف الليل ذهب كل منا إلى مكان نومه، أطفأت الأنوار وحل الهدوء والظلام وعاد معه الاشتياق والحنين إلى الوطن الذي ينهش في قلوبنا وأجسادنا ليل نهار، ولكن كالعادة يقتلنا في صمت فلا أحد يبوح.

بتنا ليلتنا واستيقظنا في الصباح ذهبنا إلى عملنا وجرت الأمور طبيعية كالعادة.

انتهى اليوم وعدنا إلى الشقة ولا جديد، التحمت الأيام في بعضها البعض، عمل بالنهار وحنين قاتل بالليل، ولكن ظل محمود هو نقطة الاستفهام التي لابد لها من إجابة، أريد التلصص عليه ولكن كيف؟!

أنا على يقين أن النحت في الصخر أهون من الغوص داخل هذا الشخص، فمرور الأيام لم تغير فيه شيئاً، اجتماعي فوق الطبيعي عند الحاجة إليه، لا يترك واجباً ولا مناسبة ولا طريق لمساعدة أحدنا إلا ويفعل ولكن دائماً في صمت، كلماته قليلة، شخصيته قوية، طباعه ثابتة، أوراقه هي صديقته التي لا يمل منها، ولكن ماذا يدون فيها؟!

أنا على يقين بأنه لن يخرج من قوقعته تلك ولن يسمح لأحد بالغوص داخله هكذا ببساطة، ولكن الفضول يقتلني لابد أن أعرف ما يخفيه ولكن كيف؟ !!

فرغم اجتماعيته إلا أنه يبني جداراً عازلاً بين البشر وبين عالمه الخاص، أعلم أن الأمر صعب إن لم يكن مستحيلاً، أنتظر إنصاف الفرص لأدخل عالمه.

تمر الأيام ولا جديد، هو كما هو نعمل نهاراً معاً ونعود ليلاً نتسامر أنا وعلي وحذيفة وسعد، وبعض الأحيان أبو عمار لكن محمود لا يعرفنا إلا في

العمل فقط، أما في الشقة لا نراه إلا مصادفة أو عند حدوث أمر يستحق تدخله.

وذات ليلة وبعد انتصاف الليل عاد أبو عمار من الخارج، ألقى علينا السلام ومازحنا قليلاً، ثم دخل غرفته ليقوم بتبديل ملابسه، دقائق وخرج علينا متسائلاً أين محمود؟!

استغربنا سؤاله فقطعاً في الداخل أو يتحدث في الهاتف كعادته بعيداً.

-فقال أبو عمار: إنّ محمود لم يأتِ من الأساس إلى الغرفة الليلة كما حدث الليلة الماضية.

-فسألته مستغرباً: وهل حقاً محمود لم يبت هنا ليلة أمس؟!

-فقال: نعم أنا متأكد، وعندما سألته اليوم في العمل قال أنّه كان في زيارة أحد أقاربه وربما أيضاً يكون هناك الليلة.

حقيقة استغربت واستبعدت فكرة أن يكون في زيارة أحد، فهذا الكائن لا يحب كثرة الكلام ولكن ربما يكون محقاً، لكن عليَّ الاطمئنان عليه، أمسكت هاتفي واتصلت به، لم يجِب، عاودت الاتصال أكثر من مرة ولم يجِب.

زاد بداخلي إحساس أن هناك أمر غير طبيعي يحدث ولكن ما خفف من حدة قلقي عليه أنه رغم غيابه ليلة البارحة إلا أنه حضر إلى العمل اليوم، عليّ بانتظار صباح الغد لأعرف ما يدور مع هذا الانطوائي.

بت ليلتي أتقلب علي سريري يؤرق نومي أمر محمود فقد شرد خيالي وذهب بي بعيداً لآراه في مدن ومواقف لم أتوقعها يوماً، فها أنا ذا معه منذ ما يزيد عن عامين لم يأتِ أحد لزيارته ولم يخبرني ولو مصادفة أن له أقارب في هذه المنطقة التي نقطن فيها، إذاً كيف ظهر هذا القريب فجأة ليجعله يبيت عنده ليلتين متتاليتين؟!!

لم أذكر يوماً أني انتظرت الصباح للذهاب إلى العمل مثل هذا اليوم.

جاء الصباح، ذهبنا إلى العمل، بحثت عن محمود لم أجده في مكانه، مر ما يزيد عن ساعة ولم يأتِ، وعند العاشرة صباحاً وصل محمود.

وسرعان ما ذهبت إليه لأسأله عن سبب تأخيره وأين كان ليلة البارحة فقد قلقنا عليه؟!

كان يبدو عليه التعب الشديد، عيناه حمراوان يبدو أنه لم ينم جيداً ليلة أمس، سألته فأجاب بكل برود، اطمئن أنا بخير فقط كنت في زيارة أحد أقاربي، وصمت، كأنه يريد ألّا أتحدث.

- فسألته: لمَ لمْ تجِب على اتصالاتي ليلة أمس؟

- فقال: لم أرَ الهاتف إلا الصباح.

إجاباته غير مريحة ولكنها أجبرتني على الصمت وأن أعود إلى عملي، ولكن تأكد شكي أن هناك أمر يخفيه.

ظللت أراقبه طوال اليوم ما أثار انتباهي محادثاته الهاتفية التي يقوم بها كل نصف ساعة أو أقل لا تستمر مدتها أكثر من دقيقة، في واحدة منها سمعته يقول أنّه لن يتأخر فقط مسافة الطريق بعد أن أنهي عملي.

فعزمت النية ألّا أتركه مهما حدث حتى أفهم ما يدور.

ومع انتهاء العمل ذهب لاستقلال سيارته، فذهبت إليه مسرعاً طالباً منه أن يوصلني معه إلى الشقة.

فقال لي: أنا لم أكن أنوي الذهاب إلى الشقة ولكن لا بأس.

استقليت معه السيارة وسألته: إذا كنت لا تنوي الذهاب إلى الشقة فأين كنت ستذهب؟!

فقال: أحد أبناء عمومتي أصيب في حادث منذ يومين، حالته خطيرة لا يكاد يخرج من عملية جراحية حتى يدخل في أخرى، ولا يمكن أن أتأخر عليهم والتواجد معهم، إذا تأخرت فهذا يعني أنهم.. أ.ن.ن.!! وصمت.

حقيقة لم أصدقه رغم أني لم أعهد عليه الكذب من قبل، ولكن دعوت لابن عمه بالسلامة وقلت له أني سوف أذهب معه هذه الليلة.

في البداية رفض وبكل قوة مدعياً أن البرد قارس فنحن في فصل الشتاء، كما أنهم يبيتون خارج المستشفى، والمسافة التي تفصل بيننا وبين مكان تواجد أبناء عمومته تزيد عن مئة وخمسين كيلو متراً.

ولكني أصريت وأخبرته أنه واجب لا بد من القيام به، كما أنني يمكنني مساعدتك في القيادة، وأمام إصراري وافق الرجل، وبدأنا بالتحرك.

طوال الطريق كان صامتاً كعادته، وفي منتصف الطريق شعرت بأن التعب والإرهاق يتملكه، فطلبت منه القيادة بدلاً عنه، وافق، دقائق قليلة ووجدته قد ذهب في سبات نوم عميق يبدو أن التعب قد بلغ منه مبلغه، ولكن لا مشكلة فأنا أعرف المكان الذي نقصده.

وصلنا إلى هناك قبل صلاة العشاء بقليل، أيقظته، وصلنا إلى أبناء عمومته كان هناك عدد ليس بالقليل، سلمنا عليهم وسألهم عن حال المريض الآن، الغريب في الأمر هي تلك الهيبة التي يتمتع بها بينهم رغم أني للوهلة الأولى أدركت أنه غير محبوب لدى الجميع من الحضور، بعضهم يحبه والبعض الآخر فقط يحترمه، رأيت ذلك في أعينهم، الأغرب هو استمرار الوفود منهم واحداً تلو الآخر يأتي، فعلمت أنه نهج متبع لديهم وأدركت سبب مقولة محمود إنه لا بد أن يكون حاضراً بينهم.

انتابني شعور جارف بأن صمت محمود ليس من فراغ فربما هو نهج متبع في قريته، وأيقنت أن وراء كل واحد منهم حكاية خفية.

مرت الدقائق ثقيلة فالبرد حقاً قارس، والصمت يخيم على الجميع، فقط من حين لآخر تدور أحاديث جانبية لا تستمر لأكثر من دقيقة ثم تعود لتهدأ، وهذا ما دفع محمود أن يقسم عليّ بكل ما أوتي من قوة أن أدخل السيارة، عدت إلى السيارة دخلت بداخلها وأغلقت كل النوافذ لأقي نفسي البرد ولأنال قسطاً من الراحة.

حاولت النوم ولكني لم أستطع، وهذا ما دفعني للتقلب بين صفحات بعض من الكتب والمجلات وضعها محمود في السيارة، وبينما أتقلب فيها وقع ناظري على أجندة كتبت بخط اليد لم أجد عناء في معرفة من كتبها فهو خط محمود.

دفعني الفضول للقراءة فيها، هي عبارة عن يوميات وخواطر ليست متصلة، فكل تدوينة مستقلة بذاتها، وقع نظري على الكثير فيها، لكن استوقفني بعض منها فإحداها وجدتها تبدأ بـ¤موت بطيء¤ وقد كتب فيها:

"أصبحت هذه الأيام باردة لا تمر، حتى هذا المجتمع الأحمق لم يعد يروق لي فمصطلحاته كلها زائفة وباهتة، لم يعد هناك شيء يعجبني، ولا أنتظر أحداً ولا أحد ينتظرني، لم يعد لدي شيء مهم فالغائب كما الحاضر كلاهما مر من هنا، أنا حتى لا أعرف إن كنت بخير أم لا؟!!!

حقيقة أنا لم أعد أشعر بشيء وهذا لا يزعجني...

كل ما يزعجني حقاً ويجعل النوم يخاصم جفني، هو تفكيري الدائم والمستمر بأدق التفاصيل، فباتت أتفه الأسباب تقلقني، أجد نفسي ولا إرادياً أغوص في عالم التفاصيل ولا أستطيع الخروج منها سالماً، برغم تظاهري المستمر بالامبالاة إلا أنني لا أكف أبداً عن التفكير، دائماً ما أكون بارعاً في ربط الأحداث بعضها ببعض والنتيجة لا شيء...

أعتقد أن هذا ما يسمونه بمتلازمة الخوف من الفقد وشعوري الدائم بعدم الونس وانشغالي المستمر بسبب وبدون سبب على أشياء تستحق وأشياء لا تستحق...

هذا الأمر جنوني يدفعني دفعاً أن أعترف أني مرهق للغاية ولا أعرف كيف الخلاص منه..

كل ما أتمناه أن أعود إنساناً طبيعياً كسائر البشر أعبر بكل سلام تلك الأيام ولياليها، انتهى.

انتهيت من قراءة هذه التدوينة وانتابني شيء من الذهول، أيعقل أن تكون هذه الحروف هي المعبرة عما بداخل هذا الكائن الذي يبدو وكأنه متزن جداً أمامنا؟!

وهذا ما دفعني للتقلب أكثر، فوجدت تدوينة بعنوان ¤تمنيت¤ وقد جاء فيها:

صدقني لطالما تمنيت أن تأتي وتسألني ماذا بك بدلاً من كيف حالك؟!!

كنت حينها وبلا تردد سوف أفتح لك أبواب قلبي وأدخلك عالمي الخاص،

كنت سأروي لك الكثير من القصص والروايات عن حياتي ....

كنت حينها سأحدثك عن أحلامي وآلامي وعن تلك الأشياء التي تنتزع فرحتي وتسرقها...

كنت سأحدثك عن الخوف الذي يلازمني من مستقبل لا أرى له ملامح صورته مشوشة ومشوهة....

كنت سأخلع قناع الهيبة والصمود من على وجهي، ذاك القناع الذي أجبرني هذا المجتمع الأحمق على ارتدائه...

كنت سأحدثك عن تلك الأشياء التي جعلتني أعيش بنصف ابتسامة، نصف سعادة، ونصف وجه...

كنت سأريك حجم الخراب والدمار الذي حل بي وأنا أعيش بنصف يتظاهر بالسلام بينما النصف الآخر قد شققه الألم...

كنت..... فقط تمنيت، انتهى.

انقبض قلبي مما قرأت، أيعقل أن يكون هذا هو شعور محمود الداخلي؟!!

وهذا ما دفعني للتقلب أكثر فوجدت تدوينة بعنوان

¤الأحلام لا تموت¤

وقد جاء فيها:

أحمق من ظن أن الأحلام تموت وتضيع، فهي لازالت موجودة ولكنها تحتاج لسلام أكثر ولحب أكبر ولإرادة أصلب، فهذه الحياة لا تسير كما نرغب إلا إذا ضربناها بشدة أكبر، وشحنا إرادتنا بقوة الصبر والرضا، فالقوة الحقيقية لا تكمن في تحمل اللكمات وإنما في تسديدها أو بحرفها عن مسارها لترسم طريقاً ثابتاً للنجاح، اطمئنوا ففي هذه الحياة لا توجد خسارة، في هذه الحياة الإنسان لا يخسر ما دام يتنفس، هو فقط يتعلم ويكتسب خبرات جديدة كل يوم ويزداد قوة ووعياً بعد كل موقف، في هذه الحياة لا يوجد خسارة لأن مجرد بقائك على قيد الحياة هو فوز، وإذا ظننت للحظة أنك خسرت شيئاً فقط تذكر ذاك الذي مات ولم يعد لحياته الأخرى شيء، انتهى.

انتهيت من قراءتها ورغم أني لم أفهم مقصدها ومغزاها الحقيقي إلا أنها تليق بمحمود، فأعتقد أنه هكذا يبدو لنا طوال الوقت يصارع الأمل، قلّبت الصفحات فوجدت تدوينة أخرى بعنوان

¤الحب ليس خدعة¤

وقد جاء فيها:

الحب هو أجمل شعور قد يشعر به الإنسان طيلة حياته، فهو الفطرة الأساسية التي خلقنا بها رب البرية، نحن من ظلمنا الحب باختيارنا لأشخاص حمقى ومرورنا بظروف سيئة، فألقينا باللوم على الحب، وكأننا قررنا وبكل سذاجة أن نعاقب المجني عليه ونكافئ الجاني، فالحب الحقيقي هو: أن تظل وفياً لمن تحب حتى بعد وفاته حافظاً لوصيته، فالذي يحب بصدق لا يمكن أبداً أن يخون والذي يحب لا يرحل تاركاً من أحبه تائهاً في بحر من الظلمات، الذي يحب لا يتجاهل، فالتجاهل مميت حد الموت، والظروف التي نظلمها دائماً ونجدها شماعة نعلق عليها أخطاءنا في الحب وعدم وفائنا فيه، بريئة من كل شيء كبراءة الذئب من دم يوسف، انتهى.

انتهيت من قراءة هذه التدوينة ورغم الألم الذي فيها إلا أنني أيقنت أن محمود محب أحب بصدق، ولكن أين حبيبته؟ وماذا حدث؟!

تقلبت سريعاً بين الصفحات فوجدت تدوينة بعنوان

¤خرف الرجل¤

وقد جاء فيها:

بينما تقترب عقارب الساعة من الإشارة إلى الواحدة بعد منتصف الليل.

أصبحت أشعر بالملل لا أعلم هل كنت أنتظر أحداً للحديث أم أنه ملل عابر؟

دفعني الفضول للتقلب بين صفحات أجندتي التي دونت فيها الكثير والكثير وهي آخر ما تبقى لي من الماضي التعيس، الذي أردت أن أطمس معالمه متعمداً، ذهبت إلى التاريخ الموافق فيها لتاريخ اليوم فوجدت تدوينة بعنوان خرف الرجل، الحقيقة أني لم أكن أتذكرها جيداً ولا أعلم كيف؟!!!

ولكن مع حروفها استجمعت ذاك المكان تحت تلك الشجرة في وقت الغروب حيث رائحة الشاي تفوح في الهواء، أطلقت لخيالي العنان للتذكر ولكن سرعان ما أحكمت قبضتي على لجام عقلي فالأمر لا أريد أن أتذكره دعوت للرجل بالرحمة وحاولت الهرب فخبأت أجندتي، وجلست أتقلب بين الأغاني فما بين فيروز تكذبني بطريقة مهذبة وتقول بعدك على بالي لتخبرني أن تلك الجميلة برغم أخطائها عالقة في ذهني ومتربعة على عرش صدري، وما بين كاظم يغني بصوته الفضفاض أنا وليلى وها أنا ذا أتقلب وأتقلب بين الأغاني ولمَ لا أتقلب؟!!

فالغناء أحياناً يمثل اشتهاء الجرح للسكين وأحياناً أبعد من ذلك، لكن حقيقة لا أعلم هل أنا سعيد بذلك أم لا؟

فأنا أشعر بثورة أسميها باختصار ثورة الألم المر ضد الأمل الخائب، وكيف لا؟ و .....

تاه الكلام أو سئمته ومللت، الآن أشعر أني بحاجة للنوم ربما هذا هو الخيار الأفضل دعنا نخلد إليه يا أنا فوسادتي تنتظرتي في شغف، لكن لا تنسَ عليك بإدخال القطة قبل أن تغلق الباب فهي أوفى من قابلته في حياتك أراك غداً ليلتك سعيدة، انتهى.

انتهيت من قراءة هذه التدوينة وبدأت الأسئلة تتوالى في ذهني، ترى من ذلك الرجل الذي يقصده محمود في حروفه؟!

وماذا قال له؟ ومن هي محبوبته؟ وما هي أخطاؤها؟ وأين هي الآن؟ وهل من الحقيقي أن يكون داخل هذا الجسد المتماسك لمحمود ثورة كما قال بين أمل خائب وألم مر؟

وهل حقيقة هذه القطة التي يهتم بها وظننت أن اهتمامه بها عابر تكن أوفى من قابله في حياته؟ إذاً من خذله وجعله هكذا؟ وكيف خذله؟!!!

بدأت الأسئلة تتدفق على عقلي كالموج الهائج ما حال بيني وبينها إلا وقوع ناظري على تدوينة بعنوان

¤رسالة منتحر¤

وقد جاء فيها:

أنا لست بخير، والأمور معي ليست على ما يرام، الصمت يلازمني فقد عجزت حروفي وكلماتي عن سرد ما يدور داخلي، ضيق تنفس، ونبضات قلب تؤلمني، أشعر أني مرهق حد الموت، وبداخلي إنسان ينزف ألماً، أحاول جاهداً أن أكون عكازاً يستند عليه ليقف مرة أخرى ويداوي جرحه ولكنه غير قادر، كل محاولاتي لذلك باءت بالفشل في صبيحة هذا اليوم، أنا غارق في بحر من الهموم والوحدة، والوحدة قاتلة، اليأس بات يتملكني ويسري في جسدي مجرى الدم في عروقي، كل محاولاتي أن أنتشلني مما أنا فيه فشلت واحدة تلو الأخرى، بائع الأكفان سئمت البحث عنه فيبدو أنه ضل طريقه إليّ، الواقع رفضني والقدر رفض استقالتي ومللت انتظار نعمة الموت فلعنة الأوجاع أهلكتني، انتظرت كثيراً أن يستطيع أحدهم رؤية ما خلف قناع ابتسامتي والغوص بداخلي ولكن هذا لم يحدث، أعرف جيداً أن الانتحار حرّمته

جميع الأديان ولكن لا مفر، فبداخلي عاصفة أحزان لا تبقي ولا تذر، أشعر أني جسد حي بدون روح فقد هجرتني روحي إلى عالم الأرواح، حان الوقت لأريح هذا الجسد وأجمع شمله بروح هجرته، أتمنى لي رحلة ممتعة في جحيم أعتقد أنه أرق من هذا الجحيم الأليم، منتحر مر من هنا، انتهى.

انتهيت من قراءة هذه التدوينة وشعرت بغليان في رأسي، ترى ماذا حدث لمحمود جعله يفكر في الانتحار؟!

فلا يمكن أن يكون هذا مجرد حرف عابر، فلا يمكن لثمرة أن تنبت بدون بذور!

وما هي الهموم التي يعيش فيها جعلته يفكر في هذا؟!

قطعاً كلنا نمر بمثل هذه الهموم، فالحقيقة الربانية ثابتة"ولقد خلقنا الإنسان في كبد" ولكن من النادر أن نصل إلى هكذا حالة وأن نفكر في الانتحار وننتظر الموت ونظنه نعمة،،،،

وبينما ينشغل عقلي بالتفكير فيما يدور في رأس محمود من خلال حروفه إذا بناظري يقع على تدوينة أخرى بعنوان

¤ليلة البارحة¤

وقد جاء فيها:

كانت ليلة عصيبة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حاولت جاهداً الهروب من أمواج الفكر التي تلاحقني وأخلد للنوم فهو دوائي الوحيد لدائي، ولكن كل المحاولات باءت بالفشل....

أشعلت سيجارتي بعد أن أعددت فنجاناً من القهوة، وجلست شارد الذهن لا أترك صغيرة ولا كبيرة إلا ويفكر فيها عقلي، يشرد خيالي مني ولا أستطيع كبح جماحه، غرفتي كانت مظلمة كعادتها ليلاً، الهواء ليس بالنظافة الكافية فقد لوثه دخان سيجارتي..

بدأ الأرق يتسلل في جسدي كالدم في عروقي ،لم أجد حلاً إلا هاتفي، قمت بفتحه وحاولت التقلب في بساتين الحروف لعلّي أستريح، وقد كان اختياري خاطئاً جداً؛ فوجدت الكثير يتحدث عن ذاك الدمار الذي حل ببيروت جميلة الجميلات، أصابني الحزن وبلغ مني مبلغه، ولكن التفكير الذي يلازمني وجدها فرصة سانحة ليمارس هوايته المفضلة في إنهاك جسدي البالي، وباغتني بسؤال قائلاً: وماذا بعد الشجب والاستنكار والاحتجاج وتلك العواطف الجياشة هل ستحل الأزمة أم أنها ستمر مرور الكرام كما حدث في سوريا ولبنان والعراق وليبيا وفلسطين ومصر، وتنتظرون كارثة أخرى تستنكرونها؟!!!!

سؤاله أفقدني ما تبقى لي من توازن فشعرت بغليان في رأسي وكأن سهماً به سم زعاف انطلق منذ ألف عام واستقر في صدري الآن، وتساءلت في قرارة نفسي لماذا نحن العرب لا نعي الدرس رغم تكرار سيناريو المشكلة أما آن الوقت لنبحث عن حلول؟!!

لماذا لانكون مثل نملة سليمان تلك النملة التي ضربت لنا مثلاً في فن التعامل مع المشاكل وكيفية حلها بطريقة صحيحة، فعندما علمت بقدوم جيش سليمان نادت النمل وبكل سرعة لتنبههم وتحذرهم من خطر قادم (يا أيها النمل) ولم تكتفِ بالتحذير فقط، بل وضعت الحل قبل وقوع المشكلة (ادخلوا مساكنكم) وبعد الاطمئنان على سلامة قومها جاءت بآخر شيء وهو سبب المشكلة (ليحطمنكم سليمان وجنوده) ولم تكتفِ بعرض المشكلة فقط، بل إنها أرادت وضع نية الخير لدى سليمان عندما قالت (وهم لا يشعرون)

هنا خارت ما تبقت لي من قوة، وأنا أستجمع مشهد النملة وكيف كانت حريصة على قومها، فذهبت في سبات نوم عميق وأنا أسأل نفسي هل النملة كانت أعقل منا نحن العرب؟!!!

كيف وقد علمونا أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي ميزه ربه بنعمة العقل؟!! انتهى.

انتهيت من قراءة هذه التدوينة وأنا مندهش أكاد لا أصدق ما أرى ليس فقط لجمال حرف محمود ولا حتى في وصف الحال بمثل قرآني، ولكن ما جعلني حقاً مستغرباً هو أنّ تلك الحروف قد خرجت من محمود ذلك الرجل الذي ما سمعته يوماً يتحدث عن أخبار ولا عن عرب فظننت أنه لا يبالي ولا يهتم، وما أكد لي أن هذا الكلام خارج من قرارة نفسه وأنه يتفاعل مع الأحداث تدوينة أخرى وجدتها بعنوان

¤بيروت والعرب¤

وقد جاء فيها:

كم كنت أتمنى أن أكون من أولئك المحترفين في صياغة الحرف، فأنا على يقين تام أني لا أساوي نقطة حبر في قلم أحدهم، ولكن...

منذ بداية أحداث ما حصل لبيروت الحبيبة وأنا أتابع وأراقب عن كثب وفي صمت ما يحدث، سمعت من بعضهم أنين الألم خلف حروفه، رأيت الشجب والاستنكار والاحتجاج في أبهى صوره، رأيت الكثير متعاطفاً بكل ما أوتي من قوة مع بيروت، ورأيت أيضاً أولئك الحمقى الذين يمتلكون من السخف ما لا يمكن وصفه، فمنهم من رأى الأمر فرصة للمزاح وربط ما حدث بتشاؤمه من الفنان حسين الجسمي، وآخرون يرددون بحمق أن بيروت تستحق فهي شاطئ كبير للعراة من الفتيات، ومنهم من ذهب بخياله المريض لأبعد من هذا ليحاول الاطمئنان على تلك المطربة لا أذكر اسمها ولكن أذكر اسم أبيها ففيه تعجرم أو ما شابه، الأمر كان محزناً ومخزياًجداً، ولكن حقيقة أنا لم أكن بتلك الحالة المنتظرة من الحزن فلا دموع ولا حتى نفس انقبض، كل ما في الأمر

هي رعشة حزن في جسد مشلول لا أكثر ولا أقل، وهذا لم أستغربه كثيراً فسرعان ما علمت أن الدموع قد جفت على ليبيا وقتلاها ومن قبلها حلب في سوريا وإضرام النيران فيها وقبلها اليمن وقبلها بغداد الحبيبة ناهيك عن قدس محتل يستباح عرضه ليل نهار ونحن نقف مكتوفي الأيدي، فأيقنت أن الجسد العربي لم يعد فقط ممزقاً بل إن ما حدث لبيروت هو فقط مجرد سريان داء في عضو آخر من جسد أنهكه الألم....

فأنا العربي لا أخجل، وبلاد العرب أوطاني وكل العرب إخواني، فقط أتمنى أن يستفيق العرب من غفلتهم ويعودوا إلى بارئهم، نترك الدين لله والوطن للجميع، نعود لنعيش بسلام في كنف المحبة نساعد بعضنا البعض، نحارب جميعاً ذاك الداء الذي انتشر فينا والمسمى بالخوف فهو مرض خبيث، ونردد دائماً إن دب الخوف بأطرافك، قطع أطرافك يا وطني فالمرض خبيث، انتهى.

زادت دهشتي بعد أن أنهيت قراءة هذه التدوينة، فكيف لرجل صامت دائماً لا يتحدث في أمر أن يكون ملماً بهذا القدر من معاناة إخوته العرب؟!

فهو لم يكن ملماً فقط بل إنه يتابع ويتفاعل ويحترق من داخله، أيضاً رأيت تدوينة بعنوان

¤كثر الخراف¤

وقد جاء فيها:

لا أخبار في هذا العالم العربي، إلا أخبار الموت المتجدد.

لا رائحة فيه، إلا رائحة تخثر الدماء.

ما بال هذه الأوطان العربية تقتل أبناءها؟!!

ما بال الطغاة فيها يتزايدون؟!!

بلادنا قسمت بيعاً، كل ثلة لهم وطن، وكل طائفة أنشأت لنفسها وطناً، كثر الخراف والرعاع ومُلئت بلادنا خونة، أصبح على رأس كل قطيع

خائن وفي كل زقاق خائن، وما أكثر الخونة في بلدي العربي، خائنون ويتغنون بالعروبة والأشراف يموتون أبشع موتة.
لك الله يا وطني. انتهى.

انتهيت من قراءة هذه التدوينة وقد أصبح الفضول يدفعني دفعاً لأعرف المزيد عما يخفيه محمود فأخذت أتقلب بين الصفحات،

وبينما أتقلب في صفحات أجندته استوقفتني تدوينة بعنوان

¤صمت¤

وقد جاء فيها:
أكره أن يسألني الناس لماذا أنت صامت دائماً؟!
ليس هناك سبب أيها الحمقى هذه شخصيتي، كما أنني لا أذهب إلى أحد منكم وأسأله لماذا تتحدث دائماً؟
ولكن هل إذا تحدثت أنا وابتعدت عن صمتي ستسمعوني؟! حتى وإن سمعتموني كيف أخبركم بحقيقة ما يدور داخلي؟!!
كيف أخبركم أني لست بخير؟!
كيف أخبركم أني أميل للوحدة أكثر فأكثر؟!!
كيف أخبركم أن الأصوات، كل الأصوات صارت مزعجة وأني لم أعد أطيق سماعها؟!
كيف أخبركم أني لم أعد أطيق اسمي وأني أريد أن أبقى وحيداً؟!
كيف أخبركم أنني أقضي ساعات ممسكاً بهاتفي محاولاً تخطي اضطراباتي النفسية؟!
كيف أخبركم أني أصبحت أرغب في الموت وأني لم أعد أشعر بشيء؟!
كفاكم ثرثرة ولتذهبوا أنتم وأسئلتكم إلى الجحيم، انتهى.

انتهيت من قراءة التدوينة وشعرت بأن عقلي يتثاقل لولا يقيني بأن هذا خط محمود لأقسمت أن هذه الكلمات لم يرها هو من قبل.

ولكن السؤال الذي بات يطاردني كيف له أن يكون متزناً هكذا؟!

أشعر من كلماته وكأنه بركان يغلي، ظاهره الرحمة وباطنه العذاب والنار،

تقلبت سريعاً بين الصفحات لأتلصص أكثر وأعرف عنه أكثر، فاستوقفتني تدوينة بعنوان

¤ليلة بائسة ¤

وقد جاء فيها:

في هذه الليلة البائسة، وبينما كان العالم نائماً من حولي كنت أنا مستيقظاً وحدي، فالأرق يلازمني والتفكير يلاحقني، فوجدتني ولا إرادياً أفكر في عالمي السيئ الذي صنعته لنفسي، وأوقاتي المملة التي أعيشها، وأيامي التي تمر وتأخذ من عمري دون أن آخذ أنا خطوة واحدة للإمام، أحزن من أجل حزن قلبي على كل من آذوني وخذلوني وتركوني في منتصف الطريق دون أسباب، أعاتب نفسي لسذاجتي وعشمي الزائد وقربي من أشخاص كان عليّ ألّا أقترب منهم أبداً، أعتذر لكرامتي التي تحاملت عليها كثيراً وكثيراً من أجل قرارات كنت أخاف أن آخذها ومواقف تغافلت عنها لأكمل فقط معهم ولم أضع نقطة في آخر السطر، وأنهي كل شيء في الوقت الذي كان عليّ الإنهاء.

في هذه الليلة البائسة بينما كان العالم نائماً من حولي كنت أنا في عالم آخر، عالم أشبه ما يكون بالجحيم..... انتهى.

انتهيت من قراءة هذه التدوينة وقد بات الفضول يقتلني أكثر فأكثر لمعرفة ما يخفيه محمود، فمن خذلوه؟ وكيف خذلوه؟ ومن أهان كرامته وكيف؟

أشعر وكأني أتابع فيلم "المتحولون"، أيعقل أن يكون صاحب هذه الكلمات هو محمود الذي أعرفه؟!!

تقلبت سريعاً بين الأوراق استوقفتني تدوينة بعنوان

¤فلتحذري¤

وقد جاء فيها:

كم أتمنى أن أستطيع الوصول إلى كل فتاة في هذا الكون أياً ما كان دينها أو جنسيتها، لأحذرها من أشباه الرجال، ومن هم أشباه الرجال؟!

هم ذكور وليس كل الذكور رجال، يخادعون الناس وما يخدعون إلا أنفسهم، إذا تحدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وللأمانة هم خائنون، مثلهم كمثل المنافقين، لا يفقهون شيئاً ولا هم يعلمون، كثيري الكلام قليلي الأفعال، وإن لكلامهم لحلاوة وأن عليه لطلاوة لكنه لا يسمن ولا يغني من جوع، لا يعرفون للحب طريقاً، يتحدثون باسمه وهم له جاهلون، كالأنعام بل هم أضل، يقولون مالا يفعلون، أحبيه رجلاً ولتحذري أشباه الرجال، انتهى.

انتهيت من هذه التدوينة ولم أستغربها كثيراً، فهكذا هي عادات محمود، وسرعان ما تذكرت موقفه مع سعد وغضبه الشديد من أجل الفتاة التي تسبب سعد في طلاقها، الشيء الغريب أني وجدت هذة التدوينة بتاريخ ذلك اليوم الذي حدثت فيه مشكلة سعد، فأيقنت أن محمود يسجل ما يدور

بداخله وأن هذه الكلمات والتدوينات لم تأتِ عبثاً، وبينما أتقلب استوقفتني تدوينة بعنوان

¤لماذا لم تتزوج¤

وقد جاء فيها:

واحدٌ من أكثر الأسئلة التي تتردد على مسامعي ليل نهار هذه الأيام، تختلف فيها المفردات ويبقى المقصد واحداً.

في البداية كان هذا السؤال يرهقني ولكني كنت أعرف جيداً كيف أتملص منه، تارة بالظروف وأخرى بأنه لم يحن الوقت بعد، أما هذه الأيام فقد بات هذا السؤال يقتلني خاصة بعد أن استنزفت كل التعليلات الكاذبة، ولكن كيف أخبرهم بالحقيقة؟!!!

كيف أخبرهم أن أكثر ما يخيفني من الزواج التقليدي هو (الخيانة) فماذا لو تزوجت فتاة كان في قلبها رجل آخر، وبعد زواجنا يحدث شجار بيننا كعادة الأزواج، فيصيبها جرح يصادف ذكرى جمعتها بحبيبها السابق، فتمسك بهاتفها ليلاً بعد نومي وتبحث عن حبيبها في أحد وسائل التواصل، فتجده وتكتب له رسالة " أنا الآن يا حبيبي في هذا الليل حزينة كعصفورة نست كيف يكون الطيران، أنا مع هذا الشخص المدعو محمود يعاملني كجارية في سوق النخاسين، حقيقة يوفر لي كل شيء ولكني أفتقد الأكسجين في بيته، حبيبي غيابك أحدث لي ثقباً أسود في قلبي فجعلني أبدو وكأني موصدة بأغلال تجرني إلى ذكراك، هذا هو هاتفي أتمنى أن تحادثني غداً في التاسعة صباحاً سيكون هذا الشيء قد ذهب إلى عمله"

كيف أخبرهم أني اكتفيت بحب شخص أهداني من السعادة ما يكفيني حتى بعد موتي أبعدوه عني وكفى؟! انتهى.

انتهيت من قراءة هذه التدوينة ولا يشغل بالي إلا معرفة ذلك الشخص الذي أحبه محمود؟ وماذا حدث؟ وكيف أبعدوه عنه؟ ومن هم هؤلاء الذين أبعدوه؟ وهل حقاً محمود محق في خوفه من الزواج التقليدي؟

وبينما أنا هكذا إذا بناظري يقع على تدوينة بعنوان

¤لست الربّ¤

وقد جاء فيها:

أنا لا أحب إيذاء أحد، لكن لن أغفر لمن فكر ويفكر في إيذائي، سأنتقم حينما يقدم أحدٌ على إيذائي أو على سلب ما هو حقي، سأتحول حينها إلى طاغية حقيقية وعليهم أن لا يندموا فهذا ما صنعته أيديهم، وأنا لست الرب لأرحم، كما أنهم لن يتغيروا، الطبع دائماً يغلب التطبع، ومن خذلني مرة سيكرر خذلانه، ومن خانني سيكرر خيانته، ومن طعنني سيكرر طعنته، ومن غدر سيكرر غدره، فمن المستحيل على من استرخصك ذات مرة أن يرفع مكانتك لديه، ومن الصعب أن من باعك ذات مساومة أن يعود ليشتريك، فهم أعداء ومن الحماقة أن تحتفظ بأعدائك في محيطك، فهم إذا خلوا بسواك يتلذذون بتشويهك، وكفهم الممدودة إليك هي كف مليئة بالقذارة، وأنا لا أثق في شخص باعني ذات مرة، فأنا لست الرب لأرحم، انتهى.

انتهيت من قراءة هذه التدوينة وقد شعرت أن عقلي توقف كلياً، فكيف لشخص لطالما أوصانا بالتسامح والتحمل يكون هذا الكم الهائل من الحقد والغضب بداخله؟!

تقلبت سريعاً بين الأوراق الممتلئة والمكتظة بالتدوينات فوجدت تدوينة بعنوان

¤أمنيات¤

وقد جاء فيها:

كم أدعو الله وأتمنى أن يحدث داخل حياتي أمراً يجعلني أنسى كل ما مضى بعد كل هذا التعب، وأرى كل ما طمحت إليه أمامي بعد كل هذا الركض، يريح بالي بعد كل هذا التفكير، ويطمئن قلبي بعد كل هذا الخوف، يجعل عينيّ ترى الألوان بعد أن تعودت على الأسود، وتبكي فرحاً بعد أن بكت حزناً لسنوات، يعوضني الله عن كل شيء قد آذاني وكل شخص قد خذلني وكل طريق قد أتعبني، أتمنى أن يحدث الله أمراً يكون له القدرة...

وقبل أن أنتهي من قراءتها إذا بمحمود يقترب ليفتح باب السيارة، كان متوتراً جداً على ما يبدو وهذا لحسن حظي، فلم ينتبه أنني أتقلب بين صفحات أجندته، دخل السيارة ووضع وجهه بين يديه التي احتضن بهما تارة القيادة وهو صامت، فسألته ماذا بك؟!

-فقال: لقد توفي ابن عمي الآن داخل المستشفى.

- قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

- فقال وهو يحرك أصابعه: عمي يريد أن يدفن جثمان ابنه في مقابر القرية، وليحدث هذا لابد من وجود مرافق له ولا أعتقد أن أحدهم سيترك عمله ويسافر معه، لذا لابد أن أنهي أوراقي في العمل سريعاً وأجهز نفسي للسفر أنا مع المتوفى.

الطريقة التي يتحدث بها محمود مع عينيه الحمراوين والإرهاق الذي يتملكه نتيجة الأيام الماضية جعلني أقف عاجزاً عن قراءة مشاعر محمود!!

لا أريد أن أنفي عنه الحزن على المتوفى ولا حتى أستطيع أن أرى فرحة بداخله، هو شعور ممزوج بينهم وخليط لا يمكن معرفة مقاديره بسهولة، وبينما نحن هكذا إذا بأحد أقارب محمود يقترب من السيارة، سأل محمود هل حقاً ستسافر أنت معه؟

فقال محمود: نعم جهزوا الأوراق من المستشفى وأنهوا أمر كفالته، وأنا سأتحرك الآن إلى عملي أنهي أوراق تخريجي وسفري وسأعود.

وبالفعل بدأ في التحرك والعودة إلى حيث عملنا، وصلنا، أنهى أوراقه بسرعة فقد ساعده على ذلك حب مسؤولي الشؤون القانونية له، أخذ أوراقه وعاد إلى الشقة قام بإعداد حقيبته وأخذ فيها كل أوراقه التي لطالما دفعني الفضول لقراءتها، ثم اتجه إلى حيث الوفاة، كنت أتابعه على الهاتف إلى أن تحركت الطائرة المتجهة إلى الوطن، تحركت الطائرة وهي تحمل جثمان ما جاء إلى هنا إلا لتحقيق أحلام ويعود ليهنأ بالعيش في بلده، فعاد إليها جثة هامدة لم يهنأ بما فات ولم يعش ما هو آتٍ.

مرت الأيام ولم تختلف كثيراً عمل بالنهار وحنين قاتل بالليل للوطن، حتى غياب محمود لم يؤثر كثيراً فهو من الأساس لم يكن يشاركنا سهرنا الذي اعتدنا عليه أنا وعلي وحذيفة وسعد، ولكن بعد سفر محمود بشهرين استطاع علي أن ينهي أوراق أهله وأتوا للعيش معه هنا، وانتقل هو من الشقة لم يعد يأتينا إلا زيارات قليلة بالليل، وحذيفة وسعد بقوا كما هم،

غير أنّ أبا عمار أصابه المرض وبدأت صحته في التدهور، حاولنا بكل قوة مساعدته والاهتمام به والتخفيف عنه،

ذات مرة أخبرني أنه لا يخاف الموت فهو حق علينا فـ "كل من عليها فان" ولكن أريد أن يتأخر الموت حتى أعود إلى بلدي وأدفن بين أهلي وعشيرتي.

أمنيته البسيطة هذه أفقدتني توازني من حجم صعوبتها رغم أنها حق مشروع ولكني حاولت التخفيف عنه ومازحته قائلاً: أي موت هذا الذي تفكر فيه أيها الشيبة؟! صدقني أنا أبحث لك عن عروس عشرينية.

مرت هكذا الأيام وبعد مرور خمسة أشهر على سفر محمود وفي إحدى اتصالاتي به علمت أن أخاه الأصغر وهو مجند في الجيش المصري خير أجناد الأرض قد استشهد على يد الغدر الغاشم والخيانة من تلك الجماعات الإرهابية التي تدعي الدين، وهم أبعد ما يكونون عن الدين، يدعون الإسلام والإسلام براء من أفعالهم، وبسبب هذا سوف يتأخر ولن يعود قريباً، قام مسؤلو الشؤون القانونية بمد فترة إجازته وتعديل أوراقه حباً فيه وليتيحوا له فرصة العودة.

بعدها بعدة أشهر قررت أن أحصل على إجازة وأعود إلى وطني الذي اشتقت إليه حد الموت، وصلت إلى المطار وانتظرت موعد الطائرة وإنهاء الأوراق،

وبينما أنا هكذا في المطار إذا بشابٍ يأتيني مهرولاً ومسرعاً يريد دقيقة هاتف، علمت منه أنها مرته الأولى التي يتغرب فيها وجدت الأمل والشغف في عينيه وأنه وضع قدمه على الخطوة الأولى في تحقيق أحلامه

الوردية، كدت أن أخبره أن يهدأ فلا داعي لكل هذا فالغربة وهم، ولكني تذكرت أول لقاء لي بمحمود في هذا المكان وكلماته التي جعلتني ألقبه بالكئيب، فكبحت لجام لساني وأعطيته الهاتف، أنهى اتصاله، وجلست أراقب الكثير من البشر والكثير من الحقائب، على يقين أن بداخل كل منهم حكاية يخفيها داخله، كم أتمنى أن تتاح لي فرصة الدخول في عقل كل واحد منهم لأرى حكايته وما يخفيه، ظللت هكذا حتى حان موعد إقلاع طائرتي، أقلعت الطائرة وطارت بنا عائدة إلى أرض الوطن.

وصلت إلى مطار القاهرة حيث ما انطلقت منه منذ ثلاثة أعوام، ورغم أن المدة التي قضيتها مغترباً لا تعني الكثير في حياة الدول، إلا أنني شعرت بتغييرات كثيرة، ولكني قلت لنفسي حتى وإن كانت الأمور متغيرة هنا ففي قريتي وبين أهلي لن يتغير شيء، ولكني كنت مخطئاً، فحتى عندما وصلت إلى قريتي وكنت بين أهلي شعرت بتغيرات كثيرة، وجدتني لا إرادياً أحن لغربتي ولسهري مع سعد وحذيفة وعلي، فحتى أصدقاء طفولتي تغيروا كثيراً، فقد انشغل كل منهم بعمله أو سافر ليخوض رحلة الغربة ومنهم من تزوج وانشغل بعائلته الصغيرة،

انزويت في نفسي ووسط جدران غرفتي بالأيام، حتى تلك الخروجات والأماكن التي كنت أخطئ في عدها من كثرتها وكنت أود العودة إلى بلدي لأزورها، لا أذكر أني ذهبت إلى إحداها...

فالغربة غالباً ما تقتل بداخلنا أشياء لا ندري بموتها إلا حين نعود إلى موطننا، وها هي قد قتلت الكثير بداخلي دون أن أشعر.

مرت هكذا أيامي لا صديق لي إلا أوراقي وهاتفي وسيجارتي، وفي أحد الأيام اتصل بي محمود يدعوني إلى حفل زفاف أحد أبناء عمومته، وافقت كي أغير ذلك الروتين الممل.

ذهبت إلى حفلة العرس ويبدو أنني لم أعد اجتماعياً كالسابق فوجدتني أنزوي على أحد الكراسي لأتابع الحفل،

الزواية التي جلست فيها رغم أني لم أكن قاصداً ذلك إلا أنها سمحت لي بالتلصص على كثير ممن في الحفل،

فوجدت شابين على يميني أحدهما يبدو عليه التعب والتأثر يقول لمن بجواره أن هذا العريس أخذ محبوبته التي لطالما تمنى أن تكون زوجة له، ولكنه لم يستطع يوماً أن يخبرها بحقيقة حبه لها، رغم أنه لم يعشق فتاة في الكون مثلها، ولكن لأنها ابنة أحد أغنياء القرية ومن عائلة ثرية ومرموقة وهو فقير فلم يستطع أن يتحدث، أيضاً كان يلوم نفسه لأنه لم يكن جريئاً ولم يخبرها بحبه، "فالحلم الذي لم تقاتل لأجله وتخوض غمار رحلته لا تستحقه".

وفي اليسار وجدت فتاة عشرينية غاية في الجمال معها طفلة صغيرة لم تكمل عامها الأول، سمعتها تقول لها:

أتعلمين يا طفلتي الجميلة كم كنت أتمنى أن تكوني ابنتي من هذا العريس فهو الوحيد الذي أحببته بكل جوارحي لكن أباكِ بماله كان أسرع منه واختطف شبابي ورغم كرهي لأبيك إلا أنني محظوظة لأن الله رزقني بك، فوجودك هو ما يريح صدري الليلة، وأخذت تداعب طفلتها.

أدرت كاميرا عيني للأمام قليلاً فوجدت شاباً لا زال في ريعان شبابه يختلس النظرات ويسرقها لفتاة في الصفوف الأمامية وبعد تركيز أكثر وجدت أنها أيضاً تبادله نفس النظرات ولكن على استحياء، فيبدو أنهم محبان وعاشقان، كنت أرى قلبيهما يتراقصان فرحاً عندما تقع عينه في عينيها.

حالة من الذهول انتابتني مما رأيته وسمعته، لولا أني سمعت ورأيت بنفسي لما خطر ببالي أن تكون تلك القصص مخفية خلف أقنعة تلك الوجوه.

حاولت الخروج من بين الزحام لأستنشق بعضاً من الهواء النقي وأشعل إحدى سجائري وأقي أذني وطأة الموسيقى المرتفعة، وأثناء خروجي من الباب وجدت امرأة كبيرة في السن تتحدث مع ابنها تطالبه بالزواج واختيار عروس له، سمعتها تخبره بأنه الآن أصبح جاهزاً للزواج مادياً ولا داعي للتأخر بعد كل تلك السنوات التي قضاها في غربته، سمعتها أيضاً تخبره عن مميزات فتاة جميلة متعلمة وأنها تعرف أهلها ولن يمانعوا أبداً، وعندما وافق الشاب سمعت أمه تقول له ها هي هناك انظر إليها قبل أن نذهب لأهلها،

شعرت بأن أطراف جسدي تتثاقل عندما تابعت إشارتها فوجدتها تقصد تلك الفتاة المحبة العاشقة التي رأيتها منذ قليل تنظر إلى الشاب، هي حقاً جميلة وهذا ما دفع الشاب أن يخبر أمه بالموافقة عليها.

تحركت ببطء إلى الخارج، أشعلت سيجارتي، وأنا أفكر في حياة تلك الفتاة التي يتراقص قلبها الليلة فرحاً مع شاب أحبته وربما في الليلة القادمة ستكون على اسم رجل آخر لا تعرفه جيداً ولا تبادله أي شعور، ولكن فقط لأن الأهل يعرفون بعضهم،

وبينما أنا شارد الذهن هكذا استفقت على صوت رصاصة انطفأت على أثرها كل الأنوار بعدها بثوانٍ ثلاث طلقات متتالية!!!

هرج ومرج وصراخ وفر من الحاضرين، اقتربت مسرعاً بين الزحام لأفهم ما حدث ولكني لم أستطع الدخول في البداية من كثرة الزحام، اهتديت إلى أن أشعل إضاءة هاتفي، وليتني مافعلت فرأيت آثار دماء على ملابسي، ترى من أين جاءتني؟

وماذا حدث بالداخل؟

وفيمن كانت تلك الطلقات؟!!!

تمت بحمد الله

قريبا بإذن الله إن قدر الله لنا البقاء واللقاء

[ليلة العرس]

أسامة علي

متلصص في الغربة

رواية

أسامة علي

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com